الجمهورية اليمنية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأندلس للعلوم والتقنية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology
2003 ١٤٢٤

علوم القرآن

المستوى : الاول

مع تحيات مركز فرات للخدمات الطلابية جامعة الأندلس

مناهل العرفان في علوم القرآن

مناع القطان

مباحث
في علوم القرآن

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد
الرياض

جميع الحقوق محفوظة للناشر ، فلا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره أو ترجمته دون موافقة خطية مسبقة من الناشر .

الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

ح مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القطان ، مناع خليل
مباحث في علوم القران — ط ٣ - الرياض .
٤٠٨ ص ، ١٧ x ٢٤سم
ردمك ٨-٣٠-٨٥٨-٩٩٦٠
١ - علوم القران أ - العنوان
ديوي ٢٢٠ ٢١/٢٥٨٤

رقم الإيداع : ٢١/٢٥٨٤
ردمك : ٨-٣٠-٨٥٨-٩٩٦٠

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
هاتف : ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٣٥٠
فاكس ٤١١٢٩٣٢ - ص.ب ٢٢٨١
الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى للطبعة الجديدة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

أقدم هذه الطبعة للدارسين والقراء، وهى طبعة جديدة خاصة بمكتبة المعارف للنشر والتوزيع فى الرياض، بعد أن لقى هذا الكتاب قبولاً بتوفيق الله تعالى ما كنت أتوقعه، وترجم إلى عدة لغات، وتقررت دراسته فى أكثر الجامعات الإسلامية.

ولست أدعى أنه لا يعدله كتاب آخر فى مادته العلمية، ولكننى بذلت جهدى ما استطعت فى اصطفاء موضوعاته، واستخلاص لبها، وانتقاء المفيد منها، وصغت ذلك بأسلوب عذب شائق. وعبارات واضحة جلية، وترتيب محكم دقيق. وكان رواج الكتاب إعلاناً عن قبوله ومدى الحاجة إليه.

وأسأل الله أن يرزقنا العلم النافع، وأن ينفعنا وينفع بنا، إنه سميع مجيب.

مناع خليل القطان
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
والمشرف على الدراسات العليا
فى ٢٠/٢/١٤١٣هـ

١

التعريف بالعلم
وبيان نشأته وتطوره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التى لا يزيدها التقدم العلمى إلا رسوخاً فى الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته - وهم عرب خُلّص - فيفهمونه بسليقتهم ، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله ﷺ عنها .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (١) شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) إنما هو الشرك » .

وكان رسول الله ﷺ يُفَسِّر لهم بعض الآيات .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٣) ألا إن القوة الرمى » .

وحرص الصحابة على تلقى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ وحفظه وفهمه ، وكان ذلك شرفاً لهم .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » أى عَظُم .

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه .

---

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) لقمان : ١٣ (٣) الأنفال : ٦٠

رُوِىَ عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » (١) .

ولم يأذن لهم رسول الله ﷺ فى كتابة شئ عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره .

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى، ومَن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدّثوا عنى ولا حَرَج ، ومَن كَذَب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ولئن كان رسول الله ﷺ قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك فى كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

جاءت خلافة عثمان (٢) رضى الله عنه ، واقتضت الدواعى - التى سنذكرها فيما بعد (٣) - إلى جمع المسلمين على مصحف واحد ، فتم ذلك ، وسُمِّىَ بالمصحف الإمام ، وأرسلت نسخ منه إلى الأمصار ، وسُمِّيَت كتابته بالرسم العثمانى ، نسبة إليه ، ويُعتبر هذا بداية « لعلم رسم القرآن » .

ثم كانت خلافة علىّ رضى الله عنه ، فوضع أبو الأسود الدؤلى بأمر منه قواعد النحو ، صيانة لسلامة النطق ، وضبطاً للقرآن الكريم ، ويعتبر هذا كذلك بداية لـ « علم إعراب القرآن » .

---

(١) أخرج عبد الرزاق ما فى معناه عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى، وأخرجه ابن جرير فى مقدمة تفسيره عن عطاء عن أبى عبد الرحمن وصححه أحمد شاكر ، فإن أبا عبد الرحمن السلمى تابعى لا يُحَدِّث إلا عن الصحابة .

(٢) لقد جُمِعَ القرآن أول جمع فى عهد الخليفة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة كما سيأتى .

(٣) انظر بحث جمع القرآن فى عهد عثمان .

استمر الصحابة يتناقلون معانى القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم ، لتفاوت قدرتهم على الفهم ، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله ﷺ ، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين .

ومن أشهر المفسرين من الصحابة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وقد كثرت الرواية فى التفسير عن : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبَىّ بن كعب . وما رُوِىَ عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملا للقرآن ، وإنما يقتصر على معانى بعض الآيات ، بتفسير غامضها ، وتوضيح مجملها .

أما التابعون ، فاشتهر منهم جماعة ، أخذوا عن الصحابة ، واجتهدوا فى تفسير بعض الآيات .

فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

واشتهر من تلاميذ أُبَىّ بن كعب بالمدينة : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى .

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق : علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود ابن يزيد ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى .

قال ابن تيمية : « وأما التفسير ، فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبى الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير ، مثل : زيد بن أسلم الذى أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب » (١) .

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٥ .

والذى رُوِىَ عن هؤلاء جميعاً يتناول : علم التفسير ، وعلم غريب القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم المكى والمدنى ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولكن هذا كله ظل معتمداً على الرواية بالتلقين .

جاء عصر التدوين فى القرن الثانى ، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة ، وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير ، وجمع بعض العلماء ما رُوِىَ من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشُعْبة ابن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجرّاح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عُيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية .

وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه ، ولم يصلنا من تفاسيرهم شئ مكتوب سوى مخطوطة تفسير عبد الرزاق بن همام .

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية .

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقى والرواية ، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث ، ثم دُوِّن على استقلال وانفراد ، وتتابع التفسير بالمأثور ، ثم التفسير بالرأى .

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعى فى موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها .

① فألّف علىّ بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية فى أسباب النزول .

② وألّف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية فى الناسخ والمنسوخ ، وفى القراءات .

وألّف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية فى مُشْكل القرآن .

وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجرى .

وألّف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية « الحاوى فى علوم القرآن » .

وألّف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية فى علوم القرآن .

وألّف أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية فى غريب القرآن .

وألّف محمد بن علىّ الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية « الاستغناء فى علوم القرآن »

وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجرى .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك .

فألّف أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هجرية فى إعجاز القرآن . وعلىّ ابن إبراهيم بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية فى إعراب القرآن .

والماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية فى أمثال القرآن .

والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية فى مجاز القرآن .

وعلم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية فى علم القراءات .

وابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هجرية فى « أقسام القرآن » .

وهذه المؤلّفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن وبحثاً من مباحثه المتصلة به .

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع - كلها أو جلها - فى مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه « مناهل العرفان فى علوم

القرآن » [1] أنه ظفر فى دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلىّ بن إبراهيم ابن سعيد الشهير بالحوفى ، اسمه « البرهان فى علوم القرآن » يقع فى ثلاثين مجلداً ، يوجد منها خمسة عشر مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة ، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن ، مفرداً كل نوع بعنوان ، فيجعل العنوان العام فى الآية : « القول فى قوله عز وجل ... » ويذكر الآية ، ثم يضع تحت هذا العنوان : « القول فى الإعراب » ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللُّغوية ، ثم « القول فى المعنى والتفسير » ويشرح الآية بالمأثور والمعقول ، ثم « القول فى الوقف والتمام » ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز ، وقد يُفْرِد القراءات بعنوان مستقل فيقول : « القول فى القراءة » ، وقد يتكلم عن الأحكام التى تؤخذ من الآية عند عرضها .

والحوفى بهذا النهج يعتبر أول من دَوَّن علوم القرآن ، وإن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر ، وهو المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

ثم تبعه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية فى كتابه « فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن » [2] .

ثم جاء بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألّف كتاباً وافياً سمّاه « البرهان فى علوم القرآن » [3] .

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية فى كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

---

(١) انظر جـ ١ ص ٢٧ وما بعدها ، ط . الحلبى .

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة فى المكتبة التيمورية .

(٣) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى أربعة أجزاء .

ثم ألّف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور « الإتقان فى علوم القرآن » .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف فى عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى . فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامى اتجاهاً سديداً فى معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب « إعجاز القرآن » لمصطفى صادق الرافعى ، وكتابى « التصوير الفنى فى القرآن » و « مشاهد القيامة فى القرآن » للشهيد سيد قطب . و « ترجمة القرآن » للشيخ محمد مصطفى المراغى ، وبحث فيها لمحب الدين الخطيب ، و « مسألة ترجمة القرآن » لمصطفى صبرى ، و « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومقدمة تفسير « محاسن التأويل » لمحمد جمال الدين القاسمى .

وألّف الشيخ طاهر الجزائرى كتاباً سمّاه « التبيان فى علوم القرآن » .

وألّف الشيخ محمد على سلامة كتابه « منهج الفرقان فى علوم القرآن » تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر تخصص الدعوة والإرشاد .

وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فألّف كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » .

ثم الشيخ أحمد أحمد علىّ فى « مذكرة علوم القرآن » التى ألقاها على طلّابه بالكلية ، قسم إجازة الدعوة والإرشاد .

وصدر أخيراً « مباحث فى علوم القرآن » للدكتور صبحى الصالح .

وللأستاذ أحمد محمد جمال أبحاث « على مائدة القرآن » .

هذه المباحث جميعها هى التى تُعرف بعلوم القرآن ، حتى صارت علَماً على العلم المعروف بهذا الاسم .

والعلوم : جمع علم ، والعلم : الفهم والإدراك . ثم نُقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً .

تعريف: والمراد بعلوم القرآن : العلم الذى يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكى والمدنى ، والناسخ والمنسوخ ، والمُحْكَم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن .

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير ، لأنه يتناول المباحث التى لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها فى تفسير القرآن (١) .

المحاضرة (2) كيفية نزول القرآن

* * *

* نزول القرآن جاء التأكيد عليه في القرآن والسنة
قال تعالى: «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل»
قال صلى الله عليه وسلم: «نزل القرآن على سبعة أحرف»

* معنى النزول: {الحلول - الانحدار من العلو إلى الأسفل} وهذان المعنيان لا يصح أن يطلقا على نزول القرآن.

* النزول في القرآن: يعني الإعلام - الإعلان - الإخبار
ومما قيل نزول القرآن:
١- أنه نزل به جبريل عليه السلام.
٢- أنه نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

* نزول القرآن كان على ثلاث مراحل هي:
١- جمعه في اللوح المحفوظ
٢- نزوله إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة القدر من ليالي شهر رمضان وذلك جملة واحدة.
٣- هو إنزاله على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام مفصلاً مفصلاً

(١) اكتفينا بهذا العرض التاريخى مع التعريف الإجمالى عن البحث فى لفظ « علوم القرآن » باعتباره مركباً إضافياً ، وباعتباره علَماً على هذا الفن .

* الحكمة من نزول القرآن: إعلام من في السماوات والأرض أن هذا القرآن هو آخر الكتب السماوية وأن محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل.

على نزول القرآن مفرقاً

٢
القرآن

من فضل اللّه على الإنسان أنه لم يتركه فى الحياة يستهدى بما أودعه اللّه فيه من فطرة سليمة ، تقوده إلى الخير ، وترشده إلى البر فحسب ، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من اللّه كتاباً يدعوه إلى عبادة اللّه وحده ، ويبشر وينذر ، لتقوم عليه الحجة ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

وظلت الإنسانية – فى تطورها ورقيها الفكرى – والوحى يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية فى نطاق قوم كل رسول ، حتى اكتمل نضجها ، وأراد اللّه لرسالة محمد ﷺ أن تُشرق على الوجود ، فبعثه على فَتْرَةٍ من الرسل . ليُكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة ، وكتابه المنزّل عليه ، وهو القرآن الكريم ... « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون منه ، ويقولون : لولا هذه اللَّبِنَة ، فأنا اللَّبِنَة ، وأنا خاتم النبيين » (٢) .

فالقرآن رسالة اللّه إلى الإنسانية كافة ، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك فى الكتاب والسُنّة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٣) .. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٤) ، « وكان كل نبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثتُ إلى الناس كافة » (٥) . ولن يأتى بعده رسالة أخرى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٦) .

(١) النساء : ١٦٥   (٢) متفق عليه .
(٣) الأعراف : ١٥٨   (٤) الفرقان : ١
(٥) فى الصحيحين من حديث : « أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنّ أحد قبلى » .
(٦) الأحزاب : ٤٠ .

فلا غرو من أن يأتى القرآن وافياً بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) ..

وتحدى رسول الله ﷺ العرب بالقرآن ، وقد نزل بلسانهم ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فثبت له الإعجاز ، وبإعجازه ثبتت الرسالة .

وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل ، فمن أوصاف جبريل الذى نزل به : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (٢) ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٤) ..

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٥) .

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ (٦) ..

والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة ، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً ، لأنه تنزيل الحكيم الحميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى أسس عامة ،

(١) الشورى : ١٣ (٢) الشعراء : ١٩٣ (٣) التكوير : ١٩ - ٢٤
(٤) الواقعة : ٧٧ - ٧٩ (٥) الحجر : ٩ (٦) الأحقاف : ٢٩ - ٣١

تترسم الإنسانية خُطاها ، وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها ، فاكتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان ، فهو دين الخلود ، وما أروع ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر : « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ، وهو خُلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ، أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة سواء بسواء » (١) .

والإنسانية المعذّبة اليوم فى ضميرها ، المضطربة فى أنظمتها ، المتداعية فى أخلاقها ، لا عاصم لها من الهاوية التى تتردى فيها إلا القرآن : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (٢) .

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى ، فحرى بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف ، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام . وكما كانت لهم الدولة بالقرآن فى الماضى ، فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به فى الحاضر .

* * *

تعريف القرآن

« قرأ » : تأتى بمعنى الجمع والضم ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل ، والقرآن فى الأصل كالقراءة : مصدر قرأ قراءة وقرآناً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٣) . أى قراءته ، فهو مصدر على وزن « فُعلان » بالضم :

(١) من رسالة التعاليم : للإمام الشهيد حسن البنا .
(٢) طه : ١٢٣ - ١٢٤ (٣) القيامة : ١٧ - ١٨

كالغفران والشكران ، تقول : قرأته قرءاً وقراءة وقرآناً ، بمعنى واحد . سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر .

وقد خُصَّ القرآن بالكتاب المنزّل على محمد ﷺ فصار له كالعَلَم الشخصى .

ويُطلق بالاشتراك اللّفظى على مجموع القرآن ، وعلى كل آية من آياته ، فإذا سمعت مَن يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ (١) ..

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم . كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣) ..

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق ، إما لأنه وُضع عَلَماً مرتجلاً على الكلام المنزّل على النبى ﷺ وليس مشتقاً من « قرأ » ، وإما لأنه من قرن الشئ بالشئ إذا ضمّه إليه ، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضاً فالنون أصلية - وهذا رأى مرجوح ، والصواب الأول .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً ، والحد الحقيقى له هو استحضاره معهوداً فى الذهن أو مُشاهَداً بالحس كأن تشير إليه مكتوباً فى المصحف أو مقروءاً باللّسان فتقول : هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو من ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ... إلى قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (٥) ..

(١) الأعراف : ٢٠٤ (٢) النحل : ٨٩

(٣) سياق الآية يدل على أن المراد بالكتاب هنا اللّوح المحفوظ . ولكن القرآن ثبت فى اللّوح المحفوظ - (والآية من سورة الأنعام : ٣٨) .

(٤) الفاتحة : ١ - ٢ (٥) الناس : ٦

ويذكر العلماء تعريفاً له يُقَرِّب معناه ويميزه عن غيره ، فيُعَرِّفونه بأنه : « كلام اللّه ، المنزّل على محمد ﷺ ، المُتعَبَّد بتلاوته » . فـ « الكلام » جنس فى التعريف ، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى « اللّه » يُخرِج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة .

و « المنزّل » يُخرج كلام اللّه الذى استأثر به سبحانه ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٢) ..

وتقييد المنزّل بكونه « على محمد ﷺ » يُخرج ما أُنزِلَ على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

و « المُتعَبَّد بتلاوته » يُخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية - إن قلنا إنها منزّلة من عند اللّه بألفاظها - لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك .

* * *

أسماؤه وأوصافه

وقد سمّاه اللّه بأسماء كثيرة :

منها « القرآن » .. ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٣) ..

و « الكتاب » .. ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ (٤) ..

و « الفرقان » .. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٥) ..

(١) الكهف : ١٠٩ (٢) لقمان : ٢٧ (٣) الإسراء : ٩

(٤) الأنبياء : ١٠ (٥) الفرقان : ١

و « الذكر » .. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ (١) ..

و « التنزيل » .. ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٢) .. إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن .

وقد غلب من أسمائه : « القرآن » و « الكتاب » ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :

« رُوعِيَ فى تسميته « قرآناً » كونه متلواً بالألسن ، كما رُوعِيَ فى تسميته « كتاباً » كونه مدوناً بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شئ بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتُذكِّر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التى وُضِعَ عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها . بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفّل بحفظه حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وإنقطاع السند » (٣) .

وبيَّن سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جىء به مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سائراً مسيرها ، ولم يكن شئ منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى

(١) الحجر : ٩ (٢) الشعراء : ١٩٢

(٣) النبأ العظيم - ص ١٢ ، ١٣ - ط . دار القلم بالكويت .

قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يَسَّر له أسبابه - وهو الحكيم العليم - وهذا تعليل جيد .

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك :

منها « نور » .. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ (١) ..

و « هدى » و « شفاء » و « رحمة » و « موعظة » .. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

و « مبارك » .. ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) .

و « مبين » .. ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (٤) .

و « بشرى » .. ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

و « عزيز » .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (٦) .

و « مجيد » .. ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ (٧) .

و « بشير » و « نذير » .. ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٨) .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معانى القرآن .

* * *

(١) النساء : ١٧٤ (٢) يونس : ٥٧ (٣) الأنعام : ٩٢

(٤) المائدة : ١٥ (٥) البقرة : ٩٧ (٦) فصلت : ١٥

(٧) البروج : ٢١ (٨) فصلت : ٣ - ٤

الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى

سبق تعريف القرآن ، ولكى نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسى والحديث النبوى نعطى التعريفين الآتيين :

● **الحديث النبوى :**

الحديث فى اللُّغة : ضد القديم ، ويُطلق ويراد به كل كلام يُتحدث به ويُنقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه ، وبهذا المعنى سُمىَ القرآن حديثاً : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ (١) ، وسُمى ما يُحدَّث به الإنسان فى نومه : ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (٢) ..

والحديث فى الاصطلاح : ما أُضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

فالقول : كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ... » (٣) .

والفعل : كالذى ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال : « صلّوا كما رأيتمونى أُصَلّى » (٤) ، وما ثبت من كيفية حجه ، وقد قال : « خذوا عنى مناسككم » (٥) .

والإقرار : كأن يقر أمراً علمه عن أحد الصحابة من قول أو فعل . سواء أكان ذلك فى حضرته ﷺ ، أم فى غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته : « أكل الضب على مائدته ﷺ » ، « وما رُوىَ من أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحاب فى صلاته فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٦) فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام ، فقال : سلوه لأى شئ يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : « أخبروه أن الله يحبه » (٧) .

---

(١) النساء : ٨٧ (٢) يوسف : ١٠١

(٣) من حديث طويل رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب .

(٤) رواه البخارى . (٥) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى .

(٦) الإخلاص : ١ (٧) رواه البخارى ومسلم .

والصفة : كما رُوِىَ : « من أنه ﷺ ، كان دائم البِشر ، سهل الخُلق ، لَيِّن الجانب ، ليس بفَظٍ ولا غليظٍ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ... » .

* * *

● **الحديث القدسى :**

عرفنا معنى الحديث لغة ، والقدسى : نسبة إلى القدس ، وهى نسبة تدل على التعظيم ، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير فى اللُّغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى ، والتقديس : التطهير ، وتقدَّس : تطهَّر ، قال الله تعالى على لسان ملائكته : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (١) أى نُطهِّر أنفسنا لك .

والحديث القدسى فى الاصطلاح : هو ما يضيفه النبى ﷺ إلى الله تعالى ، أى أن النبى ﷺ يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده ، وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مُسْنَداً إلى الله عز وجل ، فيقول : « قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .... » .

أو يقول : « قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى - أو يقول الله تعالى ... » .

ومثال الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحّاء الليل والنهار ... » (٢) .

ومثال الثانى : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأٍ ذكرته فى ملأٍ خير منه ... » (٣) .

* * *

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) أخرجه البخارى . (٣) أخرجه البخارى ومسلم .

• الفرق بين القرآن والحديث القدسى :

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسى أهمها :

١ - أن القرآن الكريم كلام الله أُوحِيَ به إلى رسول الله ﷺ بلفظه ، وتحدى به العرب ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، ولا يزال التحدى به قائماً ، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين .

والحديث القدسى لم يقع به التحدى والإعجاز .

٢ - والقرآن الكريم لا يُنسب إلا إلى الله تعالى ، فيقال : قال الله تعالى .

والحديث القدسى - كما سبق - قد يُرْوَى مضافاً إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى ، أو : يقول الله تعالى ، وقد يُرْوَى مضافاً إلى رسول الله ﷺ ، وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام هو المُخبِر به عن الله ، فيقال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .

٣ - والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر ، فهو قطعى الثبوت . والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد ، فهى ظنية الثبوت . وقد يكون الحديث القدسى صحيحاً ، وقد يكون حسناً ، وقد يكون ضعيفاً .

٤ - والقرآن الكريم من عند الله لفظاً ومعنى ، فهو وحى باللفظ والمعنى .

والحديث القدسى معناه من عند الله ، ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح فهو وحى بالمعنى دون اللفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين .

٥ - والقرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته ، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (١) وقراءته عبادة يُثيب الله عليها بما جاء فى الحديث : « مَن قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » (٢) .

(١) المزمل : ٢٠ .

(٢) رواه الترمذى عن ابن مسعود وقال : حديث حسن صحيح .

والحديث القدسى لا يجزىء فى الصلاة ، ويثيب الله على قراءته ثواباً عاماً ، فلا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره فى الحديث على قراءة القرآن ، بكل حرف عشر حسنات .

* * *

• الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

الحديث النبوى قسمان :

« قسم توقيفى » وهو الذى تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى فبيّنه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوباً إلى الله فإنه - من حيث هو كلام - حرى بأن يُنسب إلى الرسول ﷺ ، لأن الكلام إنما يُنسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

و « قسم توفيقى » وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن ، لأنه مبيِّن له ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد . وهذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحى إذا كان صواباً ، وإذا وقع فيه خطأ جزئى نزل الوحى بما فيه الصواب (١) وليس هذا القسم كلام الله قطعاً .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفى ، والتوفيقى الاجتهادى الذى أقره الوحى ، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحى ، وهذا معنى قوله تعالى فى رسولنا ﷺ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٢) ..

والحديث القدسى معناه من عند الله عز وجل ، يُلقى إلى الرسول ﷺ بكيفية من كيفيات الوحى - لا على التعيين . أما ألفاظه فمن عند الرسول ﷺ على

(١) ومثاله ما كان فى أسرى بدر ، فإن رسول الله ﷺ أخذ برأى أبى بكر وقبل منهم الفداء ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ (الأنفال : ٦٧) .

(٢) النجم : ٣ - ٤

الراجح ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته .

ويرد على هذا شبهتان !

الشبهة الأولى : أن الحديث النبوى وحى بالمعنى كذلك ، واللفظ من الرسول ﷺ فلماذا لا نسميه قدسياً أيضاً ؟

والجواب : أننا نقطع فى الحديث القدسى بنزول معناه من عند الله لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » ولذا سميناه قدسياً ، بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص ، ويجوز فى كل واحد منها أن يكون مضمونه معلماً بالوحى (أى توقيفياً) وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد (أى توفيقياً) ولذا سمينا الكل نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كان لدينا ما يميز الوحى التوقيفى لسميناه قدسياً كذلك .

الشبهة الثانية : أنه إذا كان لفظ الحديث القدسى من الرسول ﷺ فما وجه نسبته إلى الله بقوله ﷺ : « قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى » .

والجواب : أن هذا سائغ فى العربية ، حيث يُنسب الكلام باعتبار مضمونه لا باعتبار ألفاظه ، فأنت تقول حينما تنشر بيتاً من الشعر : يقول الشاعر كذا ، وحينما تحكى ما سمعته من شخص : يقول فلان كذا ، وقد حكى القرآن الكريم عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم ، وأسلوب غير أسلوبهم ، ونسب ذلك إليهم : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ

فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) مَن ذهب إلى أن الحديث القدسى وحى باللفظ كذلك يجعل هذا فرقاً أساسياً بينه وبين الحديث النبوى ، ويبقى الفرق بينه وبين القرآن الكريم فى عدم التحدى وعدم الإعجاز وعدم التعبد بتلاوته وعدم التواتر فى معظمه - (والآيات من سورة الشعراء : ١٠ - ٢٤) .

٣

الوحى

• إمكانية الوحى ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالماً غيبياً وراء هذا العالم المشاهَد، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة ، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره ، وقرّب هذا بُعْد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٢) ..

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها ، ويساندها ويُقرّبها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم وغرائزهم ، فمن العقول العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد ، ومنها الغبى الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور ، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافى المشرق ، والخبيث المعتم .

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحاً هى سر حياته ، وإذا كان الجسم تبلى ذرّاته وتفنى أنسجته وخلاياه ما لم يتناول قسطه من الغذاء ، فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها .

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للفيض الإلهى ، والوحى السماوى ، والاتصال بالملأ

(١) فصلت : ٥٣ (٢) الإسراء : ٨٥

الأعلى ، ليُلقى إليها برسالاته التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه .

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوى .

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يُحدث أثراً يُقرّب إلى الأفهام ظاهرة الوحى – حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن يتسلط بإرادته على مَن هو أضعف منه فينام نوماً عميقاً ، ويكون رهن إشارته ، ويُلقنه ما يريد فيجرى على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟ (١) .

ويسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجاد ، والسهول والبحار ، دون رؤية ذويها ، بل بعد وفاتهم .

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف ، أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

ومَن منا ليس له حديث نفس فى يقظته أو منامه يدور فى خلده دون أن يرى متكلماً أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحى .

وقد شاهد الوحى معاصروه ، ونُقِلَ بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ، ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أمته ، وقوة أتباعه ، وعزتهم ما استمسكوا به وانهيار كيانهم وخذلانهم ما فرّطوا فى جنبه، مما لا يدع مجالاً للشك فى إمكان الوحى وثبوته . وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسى بمُثله العليا ، وقيمه الروحية .

(١) انظر النبأ العظيم ص ٧٥

ولم يكن رسولنا ﷺ أول رسول أُوحِيَ إليه ، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (١) ..

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد ﷺ ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) ..

* * *

معنى الوحى

يقال : وحيت إليه وأوحيت : إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحى مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء والسرعة . ولذا قيل فى معناه : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجّه إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويُطلق ويُراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول . والوحى بمعناه اللُّغوى يتناول :

١ - الإلهام الفطرى للإنسان ، كالوحى إلى أُم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٣) ..

(١) النساء : ١٦٣ - ١٦٤ (٢) يونس : ٢ (٣) القصص : ٧

٢ - والإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (١) .

٣ - والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (٢) ..

٤ - ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٤) ..

٥ - وما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥) ..

ولغة القرآن الفاشية « أوحى » بالألف - ولم يستعمل مصدرها - وإنما جاء فيه مصدر الثلاثى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٦) ..

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرّفوه شرعاً بأنه : كلام الله تعالى المُنزّل على نبى من أنبيائه . وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أى الموحى .

والوحى بالمعنى المصدرى اصطلاحاً : هو إعلام الله تعالى مَن يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة .

وعرّفه الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد بأنه :

« عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قِبَل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويُفرّق بينه وبين الإلهام

(١) النحل : ٦٨ (٢) مريم : ١١ (٣) الأنعام : ١٢١
(٤) الأنعام : ١١٢ (٥) الأنفال : ١٢ (٦) النجم : ٤

بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يُطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » (١) .

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدرى ، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف ، إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا .

* * *

كيفية وحى الله إلى ملائكته

١ - جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ (٢) .

وعلى إيحائه إليهم : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤) ، ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ (٥) ..

وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يُكَلِّم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه .

ويزيد هذا ما جاء فى الحديث عن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال : رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجُداً ، فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل ، فيُكَلِّمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر

---

(١) انظر كتاب « الوحى المحمدى » للشيخ محمد رشيد رضا ، ص ٤٤

(٢) البقرة : ٣٠ (٣) الأنفال : ١٢

(٤) الذاريات : ٤ (٥) النازعات : ٥

بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : « قال الحق وهو العلى الكبير » فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » (١) .

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره - فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله فى الصحيح : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان » ..

٢ - وثبت أن القرآن الكريم كُتبَ فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (٢) .

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ (٤) ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (٥) ..

وفى السُنَّة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفاً : « أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (٦) ، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (٧) (٨) ، وفى رواية : « فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضِعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٩) .

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) البروج : ٢١ - ٢٢ (٣) القدر : ١

(٤) الدخان : ٣ (٥) البقرة : ١٨٥ (٦) الفرقان : ٣٣

(٧) الإسراء : ١٠٦ (٨) أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى .

(٩) أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة .

ولذلك ذهب العلماء فى كيفية وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى المذاهب الآتية :

(أ) أن جبريل تلقفه سماعاً من الله بلفظه المخصوص .

(ب) أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ .

(جـ) أن جبريل ألقى إليه المعنى - والألفاظ لجبريل ، أو لمحمد ﷺ .

والرأى الأول هو الصواب ، وهو ما عليه أهل السُنّة والجماعة ، ويؤيده حديث النوّاس بن سمعان السابق .

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (١) ..

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٢) ..

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (٣) .

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه لا كلام جبريل أو محمد .

أما الرأى الثانى فلا اعتبار له ، إذ أن ثبوت القرآن فى اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون من جملتها .

والرأى الثالث أنسب بالسُنّة لأنها وحى من الله أُوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى ، فعبَّر عنه رسول الله بعبارته : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٤) .. ولذا جازت رواية السُنّة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعانى دون القرآن ..

---

(١) النمل : ٦ (٢) التوبة : ٦

(٣) يونس : ١٥ (٤) النجم : ٣ - ٤

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام جبريل ..بأن هذا قول فاسد لوجوه :

أحدها : أن المسلمين أجمعين إذا تلوا آية قالوا : قال الله تعالى ، ولو كان هذا قول جبريل لقالوا : قال جبريل .

الثانى : أن هذا الذى بين دفتى المصحف بإجماع المسلمين هو كتاب الله ، وعلى قولهم فإنه يكون كتاب جبريل .

الثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) . وعلى قولهم ، ما نزّله من ربك ، إنما نزّله من كلام نفسه .

الرابع : أن الله تعالى قال : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٣) .. وعلى قولهم لا يكون هذا صحيحاً ، وإنما يكون المسموع كلام جبريل .

ويُجاب على مَن قال : إنه كلام محمد بأن هذا باطل لتلك الوجوه الآنفة الذكر كلها . ومن وجه آخر ، فإنهم وافقوا الوليد بن المغيرة فى قوله : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (٤) .. فدخلوا معه فى الوعيد بقوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (٥) ..

ويرد عليهم من الجواب ما أجاب الله تعالى به المشركين بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٦) ..

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى .

فمن خصائص القرآن : ١ - أنه مُعْجِز . ٢ - قطعى الثبوت .
٣- يُتعبَّد بتلاوته . ٤ - ويجب أداؤه بلفظه ، والحديث القدسى - على القول بنزول لفظه - ليس كذلك .

---

(١) النحل : ١٠٢ (٢) التوبة : ٦ (٣) البقرة : ٧٥

(٤) المدثر : ٢٥ (٥) المدثر : ٢٦ (٦) الطور : ٣٣ - ٣٤

والحديث النبوى قسمان : الأول : ما اجتهد فيه الرسول ﷺ ، وهذا ليس وحياً ويكون إقرار الوحي له بسكوته إذا كان صواباً .

والثانى : ما أُوحِيَ إليه بمعناه واللفظ لرسول الله ، ولذا يجوز روايته بالمعنى . والحديث القدسى - على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه - يكون من هذا القسم ونسبته إلى الله فى الرواية لورود النص الشرعى على ذلك دون الأحاديث النبوية .

* * *

كيفية وحى الله إلى رسله

يوحى الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة .

فالأول : بواسطة جبريل مَلك الوحى وسيأتى بيانه .

والثانى : هو الذى لا واسطة فيه .

(أ) منه الرؤيا الصالحة فى المنام : فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بُدِئَ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » (١) . وكان ذلك تهيئة لرسول الله ﷺ حتى ينزل عليه الوحى يقظة وليس فى القرآن شىء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافاً لمن ادَّعى نزول سورة « الكوثر » مناماً للحديث الوارد فيها ، ففى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه : « بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « نزلت علىّ آنفاً سورة ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٢) .. فلعل الإغفاءة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى .

---

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الكوثر .

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء فى المنام وحى يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل (١) : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .. ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن مَنَّ الله عليه بالفداء .

الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول ، فهى باقية للمؤمنين ، وإن لم تكن وحياً ، قال عليه الصلاة والسلام : « انقطع الوحى وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن » (٣) .

والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

(ب) ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة بتقظة ، وهو ثابت لموسى عليه السلام ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٥) . ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٦) .

---

(١) هذا هو الصواب ، خلافاً لمن ذهب إلى أنه إسحاق ، فإن البشارة كانت أولا بإسماعيل قبل إسحاق ، وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح ، وهو الحرى بأن يوصف بالحلم ، وقد ذهب اليهود إلى أنه « إسحاق » حقداً وحسداً ، لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ، والقرآن يرده لأنه لما ذكر البشارة بغلام حليم ذكر أنه الذبيح ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات : ١١٢)

(٢) الصافات : ١٠١ - ١٢٢

(٣) أصل الحديث فى الصحيحين وغيرهما ، ولفظ البخارى : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات - قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » .

(٤) الشورى : ٥١ (٥) الأعراف : ١٤٣ (٦) النساء : ١٦٤

كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج .

وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وليس فى القرآن شىء منه كذلك .

* * *

كيفية وحى الملك إلى الرسول

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفاً . وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام ، والكلام الإلهى من وراء حجاب يقظة - وإما أن يكون بواسطة مَلَك الوحى وهو الذى يعنينا فى هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

ولا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول من إحدى حالتين :

الحالة الأولى : - وهى أشد على الرسول - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس ، والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتُهَيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان » (١) وقد يكون صوت الملك نفسه فى أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه فى صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحى ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من

(١) رواه البخارى .

روحانيته ، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أُنساً للرسول البشرى ، ولا شك أن الحالة الأولى - حالة الصلصلة - لا يوجد فيها هذا الإيناس ، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون : « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية » .

وكلتا الحالتين مذكور فيما رُوِىَ عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله .. كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » .

وروت عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » (١) .

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهى المشار إليه فى الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ

١ - إِلَّا وَحْياً

٢ - أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

٣ - أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (٢) ..

أما النفث في الرُّوع - أى القلب - فقد ذُكِرَ فى قول الرسول ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » (٣) . والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ،

(١) رواه البخاري (٢) الشورى : ٥١ .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية بسند صحيح .

فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة ، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة وينفث في روعه ، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه ، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم .

* * *

شُبَه الجاحدين على الوحى

وقد حرص الجاهليون قديماً وحديثاً على إثارة الشُبَه في الوحى عتواً واستكباراً ، وهى شُبَه واهية مردودة .

١ - زعموا أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ ، ابتكر معانيه ، وصاغ أسلوبه ، وليس وحياً يُوحَى .

وهذا زعم باطل ، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدّعى لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره ، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه ، ويكون ذلك كافياً لرفعة شأنه ، والتسليم بزعامته . ما دام العرب جميعاً على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته ، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه .

ولا يقال إنه أراد بنسبة القرآن إلى الوحى الإلهى أن يجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره ، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئاً ، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله تعالى .

وهذا الادعاء يفترض في رسول الله أنه كان من أولئك الزعماء الذين يعبرون الطريق في الوصول إلى غايتهم على قنطرة من الكذب والتمويه ، وهو افتراض يأباه الواقع التاريخي في سيرته عليه الصلاة والسلام ، وما اشتهر به من صدق وأمانة شهد له بهما أعداؤه قبل أصدقائه .

لقد اتهم المنافقون زوجه عائشة بحديث الإفك ، وهي أحب زوجاته إليه ، وإتهامها يمس كرامته وشرفه ، وأبطأ الوحى ، وتحرّج الرسول ﷺ وتحرّج صحابته معه حتى بلغت القلوب الحناجر ، وبذل جهده فى التحرى والاستشارة ، ومضى شهر بأكمله ، ولم يزد على أنه قال لها آخر الأمر : « أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » [١] وظل هكذا إلى أن نزل الوحى ببراءتها ، فماذا كان يمنعه لو أن القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به ألسنة المتخرصين ، ويحمى عرضه ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ* لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [٢] ..

واستأذن جماعة فى التخلف عن غزوة تبوك وأبدوا أعذاراً ، وكان منهم مَن انتحل هذه الأعذار من المنافقين وأذن لهم ، فنزل القرآن الكريم معاتباً له لخطأ رأيه ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٣] . ولو كان هذا العتاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له فساد رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسى .

ونظير هذا معاتبته ﷺ فى قبول الفداء من أسرى بدر ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٤] . ومعاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضى الله عنه اهتماماً بنفر من أكابر قريش فى دعوتهم إلى الإسلام ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ

---

(١) راجع حديث الإفك فى الصحيحين وفي غيرهما ، وتفسير القصة في سورة النور .

(٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٧ (٣) التوبة : ٤٣ (٤) الأنفال : ٦٧ - ٦٨

الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ (١) ..

والمعهود فى سيرته ﷺ أنه كان منذ نعومة أظفاره مثلاً فريداً فى حسن الخُلُق ، وكريم السجايا ، وصدق اللَّهجة ، وإخلاص القول والعمل ، وقد شهد له بهذا قومه عندما دعاهم فى مطلع الدعوة وقال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بظهر هذا الوادى تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِىَّ ؟ قالوا : نعم ، ما جرَّبنا عليك كذباً » (٢) . وكانت سيرته العطرة مهوى أفئدة الناس إليه للدخول فى الإسلام ، عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : « لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ، انجفل الناس إليه ، وقيل : قَدِمَ رسول الله ، قَدِمَ رسولُ الله ، فجئتُ فى الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب » (٣) .

وصاحب هذه الصفات العظيمة التى يُتَوِّجها الصدق ما ينبغى لأحد أن يمترى فى قوله حينما أعلن نفسه بأنه ليس واضع ذلك الكتاب ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ (٤) .

٢ - وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أنه عليه الصلاة والسلام كان له من حدة الذكاء ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الفراسة ، وشدة الفطنة ، وصفاء النفس ، وصدق التأمل ، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشر ، والحق والباطل ، بالإلهام ، ويتعرف على خفايا الأمور بالكشف والوحى النفسى ، ولا يخرج القرآن عن أن يكون أثراً للاستنباط العقلى ، والإدراك الوجدانى عبَّر عنه محمد بأسلوبه وبيانه .

وأى شىء فى القرآن يعتمد على الذكاء ، والاستنباط والشعور ؟

فالجانب الإخبارى - وهو قسم كبير من القرآن - لا يمارى عاقل فى أنه لا يعتمد إلا على التلقى والتعلم .

(١) عبس : ١ - ١١ (٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه الترمذى بسند صحيح . (٤) يونس : ١٥

لقد ذكر القرآن أنباء مَن سبق من الأُمم والجماعات والأنبياء ، والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة كما يذكر شاهد العيان مع طول الزمن الذى يضرب فى أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالاً لإعمال الفكر ودقة الفراسة ، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم وهذه الأحداث فى قرونها المختلفة حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها ، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروى أخبارها : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (١) .. ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (٢) .. ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣) .. ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ (٤) ..

ومنها أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التى لا يعلمها إلا الدارس البصير ، ففى قصة نوح : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٥) . وهذا موافق لما جاء فى سفر التكوين من التوراة . وفى قصة أصحاب الكهف : ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ (٦) .. وهى عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية ، والسنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية .

فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يُوحَى إليه وهو الرجل الأمى الذى عاش فى أمة أميَّة لا تكتب ولا تحسب؟

وقد كان أهل الجاهلية الأولى أذكى من ملاحدة الجاهلية المعاصرة ، فإن

(١) القصص : ٤٤ - ٤٥ (٢) هود : ٤٩ (٣) يوسف : ٣
(٤) آل عمران : ٤٤ (٥) العنكبوت : ١٤ (٦) الكهف : ٢٥

أولئك لم يقولوا إن محمداً استقى هذه الاخبار من وحى نفسه كما يقول هؤلاء ، بل قالوا إنه درسها وأمليت عليه ﴿ وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) . ولم يتلق رسول الله ﷺ درساً على معلم قط - كما سيأتى - فمن أين جاءته هذه الأنباء فجأة بعد أن بلغ الأربعين ؟ ﴿ إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (٢) ..

هذا فى الجانب الإخبارى .

أما فى سائر العلوم التى تضمنها القرآن فإن قسم العقائد يتناول كذلك أموراً تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته ، والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم - وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل وقوة الفراسة البتة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَاناً ﴾ (٣) .. ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٤) ..

ناهيك بما تضمنه القرآن من أحكام قاطعة عن أخبار المستقبل التى تجرى على سُنَن الله الاجتماعية ، فى القوة والضعف ، والصعود والهبوط ، والعزة والذلة ، والبناء والدمار : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ (٥) ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ المُنْكَرِ ، وَللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٦)

(١) الفرقان : ٥ (٢) النجم : ٤ (٣) المدثر : ٣١
(٤) يونس : ٣٧ (٥) النور : ٥٥ (٦) الحج : ٤٠ - ٤١

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) ..

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم قد حكى عن رسول الله اتباعه للوحى ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ مِنْ رَبِّى ﴾ (٢) . وأنه بشر لا يعلم الغيب ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٣) . ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٤) ..

وقد كان عليه الصلاة والسلام عاجزاً عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين شاهدين أمامه ليقضى بينهما وهو يسمع أقوالهما فهو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات وما هو آت : « سمع رسول الله ﷺ خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » (٥) .

قال الدكتور محمد عبد الله دراز : « هذا الرأى هو الذى يُروِّجه الملحدون اليوم باسم « الوحى النفسى » زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأى علمى جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأى الجاهلى القديم ، لا يختلف عنه فى جملته ولا فى تفصيله ، فقد صوّروا النبى ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر ، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يُخيَّل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه ، وما ذاك الذى يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام ، على أنهم لم

(١) الأنفال : ٥٣ (٢) الأعراف : ٢٠٣
(٣) الكهف : ١١٠ (٤) الأعراف : ١٨٨
(٥) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السُّنن .

يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة « الوحى النفسى » حينما بدا لهم فى القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء فى أسفاره للتجارة ، فهو إذن قد علّمه بشر ، فأى جديد ترى فى هذا كله ؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاهون به قول جهّال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد فى ثوبه الجديد صورة منتسخة ، بل ممسوخة منه فى أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة فى العصر الحديث مستمدّاً من فتات الموائد التى تركتها تلك القلوب المتحجرة فى عصور الجاهلية الأولى ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) ..

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقاً أميناً ، وإنه كان معذوراً فى نسبة رؤاه إلى الوحى الإلهى ، لأن أحلامه القوية صوّرتها له وحياً إلهياً ، فما شهد إلا بما علم ، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢) .. فإن كان هذا عذره فى تصوير رؤاه وسماعه فما عذره فى دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها - بزعمهم من قبل - فليقولوا إذن إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل ، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدّعون الإنصاف والتعقل ، ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون » (٣) .

٣ - وزعم الجاهليون قديماً وحديثاً أن محمداً قد تلقى العلوم القرآنية على يد معلم .

وهذا حق ، إلا أن المُعَلِّم الذى تلقى عنه القرآن هو مَلَك الوحى ، أما أن يكون له مُعَلِّم آخر من قومه ، أو من غير قومه فلا .

إنه عليه الصلاة والسلام قد نشأ أمياً وعاش أمياً ، فى أمة أميّة لم

(١) البقرة : ١١٨ (٢) الأنعام : ٣٣ (٣) راجع : النبأ العظيم .

يُعرف فيها أحد يحمل وسام العلم والتعليم ، وهذا واقع يشهد به التاريخ ، ولا مِرية فيه .

أما أن يكون له مُعَلِّم من غير قومه فإن الباحث لا يستطيع أن يقع فى التاريخ على كلمة واحدة تشهد بأنه لقى أحداً من العلماء حدّثه عن الدين قبل إعلان نبوّته .

حقيقة إنه رأى فى طفولته بحيرى الراهب فى سوق بصرى بالشام ، ولقى فى مكة ورقة بن نوفل إثر مجيء الوحى ، ولقى بعد الهجرة علماء من اليهود والنصارى ، لكن المقطوع به أنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء شيئاً من الأحاديث قبل نبوّته ، أما بعد النبوّة ، فقد كانوا يسألونه مجادلين فيستفيدون منه ويأخذون عنه ، ولو كان رسول الله ﷺ أخذ شيئاً عن واحد منهم لما سكت التاريخ عنه . لأنه ليس من الهنات الهينات التى يتغاضى عنها الناس ، لا سيما الذين يقفون للإسلام بالمرصاد ، والكلمات التى ذكرها التاريخ عن راهب الشام أو ورقة بن نوفل كانت بشارة بنبوّته عليه الصلاة والسلام (١) أو اعترافاً بها (٢) .

ونقول لهؤلاء الذين يزعمون أن محمداً كان يُعَلِّمه بَشر : ما اسم هذا المُعَلِّم ؟ وعندئذ نرى الجواب المتهافت المتداعى فى « حدّاد رومى » (٣) ينسبون إليه ذلك ، فكيف يُستساغ عقلاً أن تكون العلوم القرآنية صادرة من رجل لم تعرفه

(١) قال بحيرى عندما رأى فى رسول الله ﷺ سيما النبوّة : « إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم » .

(٢) قال ورقة عندما سمع قصة النبى ﷺ من صفة الوحى وقد أخذته خديجة إليه يرجف فؤاده : « هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حياً اذ يُخرجك قومك . قال : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئتَ به إلا أوذىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

(٣) كان غلاماً نصرانياً ، واختلف أهل السيرة فى اسمه فقيل اسمه « سبيعة » ، وقيل « يعيش » وقيل « بلعام » .

مكة عالماً متفرغاً لدراسة الكتب ، بل عرفته حداداً منهمكاً فى مطرقته وسندانه ، عامى الفؤاد ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة بالنسبة إلى العرب ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ..

ولقد كان العرب أحرص الناس على دفع هذا القرآن إمعاناً فى خصومة محمد ﷺ ، ولكنهم عجزوا ووجدوا السبل أمامهم مغلقة ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل ، فما للملحدين اليوم - وقد مضى أربعة عشر قرناً على ذلك - يبحثون فى قمامات التاريخ ملتمسين سبيلاً من تلك السبل الفاشلة نفسها ؟!

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لا يوجد له مصدر إنسانى ، لا فى نفس صاحبه ، ولا عند أحد من البشر ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

ونشأة رسول الله ﷺ فى بيئة أمية جاهلية ، وسيرته بين قومه ، من أقوى الدلائل على أن الله قد أعده لحمل رسالته ، وأوحى إليه بهذا القرآن هداية لأمته: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (٢) . يقول الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد : « من السُّنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لاسيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عُصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السُّنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده » (٣) .

---

(١) النحل : ١٠٣ (٢) الشورى : ٥٢ - ٥٣

(٣) كأمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

ولكن الأمر لم يجر على سُننه ، بل بُغِّضَتْ إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ (١) . لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخُلُق العظيم ، حاشى لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هو الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هُدوا إليه من انقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته » .

* * *

● متاهات المتكلمين :

وقد خاض المتكلمون فى بيان كلام الله على نهج الفلاسفة فأوقعوا الناس فى متاهات أضلتهم عن سواء السبيل ، حيث قسَّموا كلام الله تعالى إلى قسمين : نفسى قديم قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا ترتيب ولا لغة ، وكلام لفظى هو المنزَّل على الأنبياء عليهم السلام ، ومنه الكتب الأربعة ، وأغرق علماء الكلام فى خلافاتهم الكلامية المبتدعة : أيكون القرآن بهذا المعنى الثانى مخلوقاً أم لا ؟ ورجحوا أن يكون مخلوقاً ، وخرجوا بذلك عن منهج السلف الصالح فيما لم يرد به كتاب ولا سُنَّة ، وتناولوا صفات الله بالتحليل الفلسفى الذى يؤدى إلى التشكيك فى عقيدة التوحيد .

ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبته رسوله ﷺ فيما صح عنه ، وحسبك أن تؤمن بأن الكلام صفة من صفاته تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٢) . وأن القرآن الكريم - وهو الوحى المنزَّل على محمد ﷺ - كلام الله غير مخلوق ،

---

(١) الضحى : ٧ (٢) النساء : ١٦٤

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وإثبات هذا ونحوه مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله وإن كان يوصف به العباد فإنه لا ينافى كمال تنزيهه تعالى عما لا يليق به من نقائص عباده ، ولا يقتضى مماثلته لهم .

إذ أن الاشتراك فى الأسماء لا يقتضى الاشتراك فى المسميات ، فشتان بين الخالق والمخلوق فى الذات والصفات والأفعال ، فذاته تعالى أكمل ، وصفاته أسمى ، وأفعاله أتم وأعلى ، وإذا كان الكلام صفة كمال للمخلوق فكيف ينتفى هذا عن الخالق ؟ ويسعنا ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ وعلماء التابعين وأئمة الحديث والفقه فى العصور المشهود لها بالخير قبل ظهور بدعة المتكلمين من الإيمان بما جاء عن الله أو صح عن رسوله فى صفاته تعالى وأفعاله إثباتاً ونفياً من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، وليس لنا أن نُحَكِّم رأينا فى كُنْهِ ذات الله أو كيفية صفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) .

* * *

(١) التوبة : ٦

(٢) الشورى : ١١

٤

المكى والمدنى

تُولى الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء ، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح بحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هى - فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية - دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب ، فنجد أعلام الهُدى من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان ، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج فى الأحكام والتكاليف ، ومما رُوِىَ فى ذلك ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه » (١) .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخُلُق والسلوك ، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللَّبنات التى تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع .

(١) أخرجه البخارى .

فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون الوحى ، ويكذّبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (١) . ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢) . وهم ألداء فى الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان - حيث كان القوم كذلك نزل الوحى المكى قوارع زاجرة ، وشهباً منذرة ، وحججاً قاطعة ، يحطم وثنيتهم فى العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية ، ويهتك أستار فسادهم ، ويُسَفِّه أحلامهم ، ويقيم دلائل النبوّة ، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم - على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذّبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد فى مكى القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة العذاب ، فـ « كلا » الرادعة الزاجرة ، والصاخة والقارعة ، والغاشية والواقعة ، وألفاظ الهجاء فى فواتح السور ، وآيات التحدى فى ثناياها ، ومصير الأمم السابقة ، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية - كل هذا نجده فى خصائص القرآن المكى .

وحين تكوّنت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتُحنت فى عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة - حين تكوّنت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وتفصّل أصول التشريع ، وتضع قواعد المجتمع ، وتحدّد روابط الأسرة ، وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ، وتجادل أهل الكتاب وتُلجم أفواههم - وهذا هو الطابع العام للقرآن المدنى .

* * *

(١) الصافات : ١٦ (٢) الجاثية : ٢٤

عناية العلماء بالمكى والمدنى وأمثلة ذلك وفوائده

وقد عَنِىَ العلماء بتتبّع المكى والمدنى عناية فائقة ، فتتبعوا القرآن آية آية ، وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها ، مراعين فى ذلك الزمان والمكان والخطاب ، لا يكتفون بزمن النزول ، ولا بمكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدنى ، وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحى فى جميع مراحله ، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعيّن وقت نزولها ، ويحدّد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من قبيل المكى أم من قبيل المدنى ؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية ، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة الإسلامة فى مكة أم من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة ؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجّح بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل فى مكة ، وبعضها شبيهاً بما نزل فى المدينة .

وإذا كان الآيات نزلت فى مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ، فقالوا : ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب « التنبيه على فضل علوم القرآن » : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى ، وما نزل بالجُحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، وما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً ،

وما نزل مشيعاً [1] ، وما نزل مفرداً ، والآيات المدنيات من السور المكية ، والآيات المكيات فى السور المدنية ، وما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مُجْمَلاً ، وما نزل مُفَسَّراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى ؛ فهذه خمسة وعشرون وجهاً مَن لم يعرفها ويُمَيِّز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى » [2] .

وحرص العلماء على الدقة ، فرَتّبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة ، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا ، وازدادوا حرصاً فى الاستقصاء . ففرّقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً ، وما نزل صيفاً وما نزل شتاءً ، وما نزل فى الحَضَر وما نزل فى السَّفَر .

وأهم الأنواع التى يتدارسها العلماء فى هذا المبحث :

١ - ما نزل بمكة .

٢ - ما نزل بالمدينة .

٣ - ما اختُلِفَ فيه .

٤ - الآيات المكية فى السور المدنية .

٥ - الآيات المدنية فى السور المكية .

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدنى .

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى .

٨ - ما يشبه نزول المكى فى المدنى .

٩ - ما يشبه نزول المدنى فى المكى .

---

(١) كالذى رُوِىَ فى بعض السور والآيات مثل سورة الأنعام ، وسورة الفاتحة ، وآية الكرسى .

(٢) انظر « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى جـ ١ ، ص ٨ ، الطبعة الثالثة للحلبى .

١٠ - ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة .

١١ - ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .

١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً .

١٣ - ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً .

١٤ - ما نزل فى الحَضَر وما نزل فى السَّفَر .

فهذه أنواع أساسية ، يرتكز محورها على المكى والمدنى ، ولذا سُمِىَ هذا بـ « علم المكى والمدنى » .

● أمثلة :

١ ، ٢ ، ٣ - أقرب ما قيل فى تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة ، أن المدنى عشرون سورة :

١ - البقرة .	٢ - آل عمران .	٣ - النساء .
٤ - المائدة .	٥ - الأنفال .	٦ - التوبة .
٧ - النور .	٨ - الأحزاب .	٩ - محمد .
١٠ - الفتح .	١١ - الحجرات .	١٢ - الحديد .
١٣ - المجادلة .	١٤ - الحشر .	١٥ - الممتحنة .
١٦ - الجمعة .	١٧ - المنافقون .	١٨ - الطلاق .
١٩ - التحريم .	٢٠ - النصر .	

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة :

١ - الفاتحة .	٢ - الرعد .	٣ - الرحمن .
٤ - الصف .	٥ - التغابن .	٦ - التطفيف .
٧ - القدر .	٨ - البيِّنة .	٩ - الزلزلة .
١٠ - الإخلاص .	١١ - الفلق .	١٢ - الناس .

وأن ما سوى ذلك مكى . وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

٤ - الآيات المكية فى السور المدنية : لا يُقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون فى المكية بعض آيات مدنية ، وفى المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتى فى التسمية : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية - كما نجد ذلك فى المصاحف .

ومن أمثله الآيات المكية فى السور المدنية « سورة الأنفال » مدنية ، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) قال مقاتل فى هذه الآية : نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين فى دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة . واستثنى بعضهم كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

٥ - الآيات المدنية فى السور المكية : ومن أمثلة الآيات المدنية فى السور المكية « سورة الأنعام » قال ابن عباس : نزلت بمكة جملة واحدة . فهى مكية الا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ،

(١) الأنفال : ٣٠

(٢) الأنفال : ٦٤

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

و « سورة الحج » مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدنى : ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣) . فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ، وهى مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكياً ، كما لا يسمونه مدنياً على وجه التعيين ، بل يقولون فيه : ما نزل بمكة وحكمه مدنى .

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى : ويمثلون له بسورة الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة ، فهى مدنية باعتبار المكان ، ولكن الخطاب فى ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة ... ومثل هذا صدر سورة « براءة » نزل بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركى أهل مكة .

٨ - ما يُشبه نزول المكى فى المدنى : ويعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ، ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال - وهى مدنية : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة .

٩ - ما يُشبه نزول المدنى فى المكى : ويعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ (٥) .. قال السيوطى : فإن الفواحش كل ذنب

(١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣

(٢) الحج : ١٩

(٣) الحجرات : ١٣

(٤) الأنفال : ٣٢

(٥) النجم : ٣٢

فيه حد ،والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللّمم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه [1] .

١٠ – ما حُملَ من مكة إلى المدينة : ومن أمثلته سورة ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [2] أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال : « أول مَن قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ : مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، فما جاء حتى قرأتُ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فى سور مثلها » وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلّموه الأنصار .

١١ – ما حُملَ من المدينة إلى مكة : ومن أمثلته أول سورة « براءة » ، حيث أمَّرَ رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج فى العام التاسع . فلما نزل صدر سورة « براءة » حمّله رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر حتى يُبَلِّغ المشركين به . فأذّن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك .

١٢ – ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزل نهاراً ، أما ما نزل بالليل فقد تتبعه القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران : أخرج ابن حبّان فى صحيحه ، وابن المنذر ، وابن مردويه وابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها : أن بلالاً أتى النبى ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى ، فقال : يا رسول الله .. ما يبكيك ؟ قال : « وما يمنعنى أن أبكى وقد أُنزلَ علىَّ هذه الليلة : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ [3] .. ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر » .

---

(١) الإتقان : جـ ١ ص ١٨ (٢) الأعلى : ١ (٣) آل عمران : ١٩٠

ومنها : آية الثلاثة الذين خُلّفوا ، ففى الصحيحين من حديث كعب : « فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل » [1] .

ومنها : أول سورة الفتح ، ففى البخارى من حديث عمر : « لقد نزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، فقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [2] ..

١٣ – ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً : ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلالة التى فى آخر سورة النساء ، ففى صحيح مسلم عن عمر : « ما راجعتُ رسول الله ﷺ فى شىء ما راجعته فى الكلالة ، وما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فيه ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : يا عمر ، ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » ؟ [3] .

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك ، فإنها كانت فى الصيف فى شدة الحر كما فى القرآن نفسه [4] .

ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك فى سورة النور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [5] ... إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [6] ففى الصحيح عن عائشة : « أنها نزلت فى يوم شات » .

---

(١) ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة ١١٧ – ١١٨) وهم الذين قبل الله عذرهم فى التخلف بغزوة تبوك . (٢) الفتح : ١ .

(٣) ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ ﴾ (النساء : ١٧٦) والكلالة كما فى صريح الآية : الميت الذى لا ولد له ولا مال يورث .

(٤) وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم : ﴿ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِى الْحَرِّ ﴾ ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١) .

(٥) النور : ١١ (٦) النور : ٢٦

ومن أمثلته الآيات التى فى غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت فى شدة البرد : أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » عن حذيفة قال : « تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثنى عشر رجلاً ، فأتانى رسول الله ﷺ فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، قلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ (١) ..

١٤ - ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر : أكثر القرآن نزل فى الحضر ، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو فى سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحى فى مسيره ، وقد ذكر السيوطى لما نزل فى السفر كثيراً من الأمثلة(٢) .. منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرجه أحمد عن سعد بن أبى وقاص - وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) .. أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت فى بعض أسفاره ﷺ - وأول سورة الحج ، أخرج الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين قال : « لما نزلت على النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤) ... إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٥) .. أنزلت عليه هذه وهو فى سفر . وسورة الفتح ، أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : « نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها » .

* * *

• فوائد العلم بالمكى والمدنى :

وللعلم بالمكى والمدنى فوائد أهمها :

(أ) الاستعانة به فى تفسير القرآن : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً . وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب . ويستطيع المفسِّر فى ضوء ذلك عند تعارض المعنى فى آيتين أن يُميِّز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم .

(ب) تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله ، فإن لكل مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معانى البلاغة ، وخصائص أسلوب المكى فى القرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهجاً لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لُبَّه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة فى مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

(جـ) الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية ..

فإن تتابع الوحى على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذى لا يدع مجالاً للشك فيما رُوِىَ عن أهل السير موافقاً له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

* * *

معرفة المكى والمدنى وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء فى معرفة المكى والمدنى على منهجين أساسيين : المنهج السماعى النقلى ، والمنهج القياسى الاجتهادى .

والمنهج السماعى النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحى ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد فى المكى والمدنى من هذا القبيل ، وفى الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد حفلت بها كتب

التفسير بالمأثور ، ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ شيء فى ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التى تجب على الأمة إلا بالقدر الذى يُعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى فى « الانتصار » : « إنما يُرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ فى ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول » [1] .

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدنى ، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ فى السورة خصائص المكى قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادى ، ولذا قالوا مثلاً : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا ، قال الجعبرى : « لمعرفة المكى والمدنى طريقان : سماعى وقياسى » [2] ولا شك أن السماعى يعتمد على النقل ، والقياسى يعتمد على العقل والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى .

* * *

● الفرق بين المكى والمدنى :

للعلماء فى الفرق بين المكى والمدنى ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأى منها بُنِىَ على اعتبار خاص .

الأول – اعتبار زمن النزول ، فالمكى : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة

(١) انظر الاتقان جـ ١ ص ٩

(٢) انظر الاتقان جـ ١ ص ١٧

ولو بمكة ، أو عرفة : مدنى ، كالذى نزل عام الفتح ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [1] فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [2] وهذا الرأى أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده .

الثانى – اعتبار مكان النزول ، فالمكى : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية . والمدنى : ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء وسلع .

ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة [3] ، فلا يسمى مكياً ولا مدنياً ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً .

الثالث – اعتبار المخاطَب ، فالمكى : ما كان خطاباً لأهل مكة ، والمدنى : ما كان خطاباً لأهل المدينة .

وينبنى على هذا الرأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكى ، وما فيه من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مدنى .

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفتتح بأحد الخطابين ، وأن هذا الضابط لا يطرد ، فسورة البقرة مدنية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [4] .. وقوله

(١) النساء : ٥٨

(٢) فى الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع – (والآية من سورة المائدة : ٣)

(٣) فسورة « الفتح » نزلت بالسفر ، وقوله تعالى فى سورة التوبة : ٤٢ : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ ﴾ نزل بتبوك ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ فى سورة الزخرف : ٤٥ ، نزل ببيت المقدس ليلة الإسراء .

(٤) البقرة : ٢١

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) ، وسورة النساء مدنية وأولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وسورة الحج مكية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين ، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها .

* * *

مميزات المكى والمدنى

استقرأ العلماء السور المكية والسورة المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التى يتناولها . وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

● ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية :

١ - كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

٢ - كل سورة فيها لفظ « كلا » فهى مكية ، ولم ترد إلا فى النصف الأخير من القرآن . وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة .

٣ - كل سورة فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وليس فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهى مكية ، إلا سورة الحج ففى أواخرها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ (٣) .. ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .

٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية سوى البقرة .

٥ - كل سورة فيها آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة كذلك .

---

(١) البقرة : ١٦٨ (٢) الحج : ٧٧ (٣) الحج : ٧٧

٦ - كل سورة تفتتح بحروف التهجى كـ « ألم » و « الر » و « حم » ونحو ذلك فهى مكية سوى الزهراوين : وهما البقرة وآل عمران ، واختلفوا فى سورة الرعد .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .

٢ - وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التى يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلماً ، ووأد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣ - ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم .

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصح الآذان ، ويشتد قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القَسَم ، كقصار المفصّل إلا نادراً .

* * *

● ضوابط المدنى ومميزاته الموضوعية :

١ - كل سورة فيها فريضة أو حد فهى مدنية .

٢ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية .

٣ - كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .

٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .

٣ - الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسيتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .

٤ - طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها .

* * *

- شروط النسخ والمنسوخ والمتأخر ينسخ المتقدم .

الأولى مرتبا :
١ - صدر سورة العلق
٢ - المدثر
٣ - الفاتحة
٤ - بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة (4)

٥

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل

التعبير عن تلقى رسول الله ﷺ للقرآن بنزوله عليه يُشعر بقوة يلمسها المرء فى تصور كل هبوط من أعلى . ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التى حوّلت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغيراً ربط السماء بالأرض ، ووصل الدنيا بالآخرة ، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامى فى مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن - تعطى الدارس صورة عن التدرج فى الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التى نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق ، وقد تناول هذا أول ما نزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق ، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل تشريع من تعاليم الإسلام ، كالأطعمة ، والأشربة ، والقتال ... ونحو ذلك .

وللعلماء فى أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل كذلك أقوال ، نجملها ونُرَجِّح بينها فيما يأتى :

• أول ما نزل :

١ - أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .. ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه اللَّيالىَ ذوات العدد ويتزوَّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوِّده لمثلهاحتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء ،

(١) العلق : ١ - ٥

فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجَهْد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطّنى الثانية حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ... حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » .. الحديث [1] .

٢ - وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. لما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، قلت : أو ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ؟ قال : أحدّثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ : « إنى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى . ثم نظرتُ إلى السماء فإذا هو - يعنى جبريل - فأخذتنى رجفة . فأتيتُ خديجة فأمرتهم فدثّرونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [2] .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبيّن جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها - ويؤيد هذا ما فى الصحيحين أيضاً عن أبى سلمة عن جابر قال : سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يُحَدِّث عن فَتْرَة الوحى فقال فى حديثه « بينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعتُ ، فقلت : زَمِّلونى ، فدثرونى ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة

(١) التحنث : التعبد ، وأصله ترك الحنث ، أى الذنب . وغطنى : أى ضنى ضماً شديداً حتى كان لى غطيط ، وهو صوت من حُبِسَت أنفاسه بما يشبه الخنق . والجَهْد : - بفتح الجيم - يُطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة - وبضمها - يطلق على الوسع والطاقة لا غيره .

(٢) المدثر : ١ - ٢

متأخرة عن قصة حراء - أو تكون « المدثر » أول سورة نزلت بعد فَتْرَة الوحى - وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فتُقدَّم عليه رواية عائشة . ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق : ﴿ اقْرَأْ ﴾ وأول سورة نزلت كاملة ، أو أول ما نزل بعد فَتْرَة الوحى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. أو أول ما نزل للرسالة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وللنبوّة ﴿ اقْرَأْ ﴾ .

٣ - وقيل إن أول ما نزل هو سورة « الفاتحة » ولعل المراد أول سورة كاملة .

٤ - وقيل : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ والبسملة تنزل صدراً لكل سورة . ودليل هذين أحاديث مرسلة ، والقول الأول المؤيّد بحديث عائشة هو القوى الراجح المشهور .

وقد ذكر الزركشى فى « البرهان » حديث عائشة الذى نص على أن أول ما نزل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ وحديث جابر الذى نص على أن أول ما نزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ثم قال : « وجمع بعضهم بينهما بأن جابراً سمع النبى ﷺ يذكر قصة بدء الوحى ، فسمع آخرها ، ولم يسمع أولها ، فتوهّم أنها أول ما نزلت ، وليس كذلك ، نعم هى أول ما نزل بعد سورة ﴿ اقْرَأْ ﴾ وفَتْرَة الوحى ، لما ثبت فى الصحيحين أيضاً عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُحَدِّث عن فَتْرَة الوحى ، قال فى حديثه : « بينما أنا أمشى ، سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعتُ رأسى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثتُ منه فرقاً [1] ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ .

فقد أخبر فى هذا الحديث عن الملك الذى جاءه بحراء قبل هذه المرة ، وأخبر فى حديث عائشة أن نزول ﴿ اقْرَأْ ﴾ كان فى غار حراء ، وهو أول وحى ، ثم فَتَرَ بعد ذلك ، وأخبر فى حديث جابر أن الوحى تتابع بعد نزول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾

(١) جئثت : فزعت ، وفى صحيح البخارى : « فرعبت منه » .

فقيما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند عن أبَىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أقرأه هاتين الآيتين : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ فى آخر سورة براءة .

٦ - وقيل : آخر ما نزل سورة المائدة ، لما رواه الترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها ، وأجيب بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، فلم تُنسخ فيها أحكام .

٤ - وقيل : آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (١) .. لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أمّ سَلَمة أنها قالت : « آخر آية نزلت هذه الاية : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ ... إلى آخرها ، وذلك أنها قالت : يا رسول الله .. أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) ، ونزلت : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ ﴾ (٣) ونزلت هذه الآية، فهى آخر الثلاثة نزولاً ، وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل فى الرجال خاصة » .

ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاثة نزولاً ، وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذُكِرَ فيه النساء .

٥ ٨ - وقيل : آخر ما نزل آية : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ (٤) .. لما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس قال : هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء . والتعبير بقوله : « وما نسخها شىء » يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمداً .

(١) آل عمران : ١٩٥
(٢) النساء : ٣٢
(٣) الأحزاب : ٣٥
(٤) النساء : ٩٣

٩ - وأخرج مسلم عن ابن عباس قال : « آخر سورة نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) وحُمِلَ ذلك على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشْعِراً بوفاة النبى ﷺ كما فهم بعض الصحابة ، أو أنها آخر ما نزل من السور .

* وهذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ . وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كُلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول ، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص ، أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خرّجنا به كل قول منها .

٧ - أما قوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (٢) فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما رُوِىَ فى نزول آية الربا ، وآية الدَّيْن ، وآية الكَلَالة ، وغيرها بعد ذلك . لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، وحجهم وحدهم دون أن يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل وذلك من تمام النعمة : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى « الانتصار » مُعلّقاً على اختلاف الروايات فى آخر ما نزل : « هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كُلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب »(٣) .

* * *

(١) أى سورة النصر .
(٢) المائدة : ٣
(٣) انظر الإتقان جـ ١ ص ٢٧ . ونص العبارة الأخيرة فى الزركشى : « فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخراً وتلاوته ، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل فى الترتيب » انظر البرهان جـ ١ ص ٢١ ، وفى نقل « الإتقان » شىء من التحريف .

فعُلم بذلك أن ﴿ اقْرَأْ ﴾ أول ما نزل مطلقاً ، وأن سورة المدثر بعده » . وكذلك قال ابن حبان فى صحيحه : لا تضاد بين الحديثين ، بل أول ما نزل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ بغار حرا . فلما رجع إلى خديجة رضى الله عنها وصبت عليه الماء البارد ، أنزل الله عليه فى بيت خديجة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. فظهر أنه لما نزل عليه ﴿ اقْرَأْ ﴾ رجع فتدثر ، فأنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ..

وقيل : أول ما نزل سورة الفاتحة ، رُوِىَ ذلك من طريق أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هارباً ، وذكر نزول الملك عليه وقوله : قل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ... إلى آخرها .

وقال القاضى أبو بكر فى « الانتصار » : وهذا الخبر منقطع ، وأثبت الأقاويل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ويليه فى القوة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأول ما نزل من أوامر التبليغ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة ، وهذا كما ورد فى الحديث : « أول ما يُحاسَب به العبد الصلاة » [1] و « أول ما يُقضَى فيه الدماء » [2] وجمع بينهما بأن أول ما يُحكم فيه من المظالم التى بين العباد الدماء . وأول ما يُحاسَب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة .

وقيل : أول ما نزل للرسالة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .. وللنبوة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فإن العلماء قالوا : قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ دال على نبوة محمد ﷺ ، لأن النبوة عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ دليل على رسالته ﷺ ، لأنها عبارة عن الوحى إلى الشخص على لسان المَلَك بتكليف عام » [3] .

(١) نقله السيوطى فى « الجامع الصغير » عن الطبرانى ، ولفظه : « أول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح له سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الديات » ، ولفظه : « أول ما يُقضَى بين الناس فى الدماء » .

(٣) انظر « البرهان فى علوم القرآن » للزركشى ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ١ ص ٢٠٦ وما بعدها .

• آخر ما نزل :

١ - قيل : آخر ما نزل آية الربا ، لما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت آية الربا » والمراد بها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ [1] .

٢ - وقيل : آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ... ﴾ [2] ... الآية ، لما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخر شىء نزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ... الآية .

٣ - وقيل : آخر ما نزل آية الدَّيْن ، لما روى عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدَّيْن » والمراد بها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [3] ... الآية .

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ، آية الربا ، فآية ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ فآية الدَّيْن ، لأنها فى قصة واحدة . فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح ، وبهذا لا يقع التنافر بينها .

٤ - وقيل : آخر ما نزل آية الكَلالة . فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب قال : آخر آية نزلت : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [4] ... الآية ، وحُملت الآخرية هنا فى قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث .

٥ - وقيل : آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [5] ... إلى آخر السورة . ففى المستدرك عن أُبَىّ بن كعب قال : آخر آية نزلت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ... إلى آخر السورة ، وحُمِلَ هذا على أنها آخر ما نزل من سورة « براءة » .

(١) البقرة : ٢٧٨ (٢) البقرة : ٢٨١ (٣) البقرة : ٢٨٢
(٤) النساء : ١٧٦ (٥) التوبة : ١٢٨

● أوائل موضوعية :

وتناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة ، ومن ذلك :

١ - أول ما نزل فى الأطعمة : أول آية نزلت بمكة آية الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

ثم آية النحل : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) ..

ثم آية البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

ثم آية المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) ..

٢ - أول ما نزل فى الأشربة : أول آية نزلت فى الخمر آية البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (٥) ..

(١) الأنعام : ١٤٥ (٢) النحل : ١١٤ - ١١٥ (٣) البقرة : ١٧٣

(٤) المائدة : ٣ (٥) البقرة : ٢١٩

ثم آية النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (١) ..

ثم آية المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٢) .

عن ابن عمر قال : « نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شىء : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ ... الآية . فقيل : حُرِّمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله .. دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ فقيل : حُرِّمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله .. ألا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ، ثم نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : حُرِّمت الخمر » (٣) .

٣ - أول ما نزل فى القتال : عن ابن عباس قال : أول آية نزلت فى القتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤) .

* * *

● فوائد هذا المبحث :

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فوائد أهمها :

(أ) بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم صيانة له وضبطاً لآياته : فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية ، فعرفوا متى نزلت ؟ وأين نزلت ؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله ﷺ ما ينزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم ، ومبعث إيمانهم ، ومصدر عزهم ومجدهم ، وكان من أثر

(١) النساء : ٤٣ (٢) المائدة : ٩٠ - ٩١ (٣) رواه الطبالسى فى مسنده .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك - (والآية من سورة الحج : ٣٩) .

ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ..

(ب) إدراك أسرار التشريع الإسلامى فى تاريخ مصدره الأصيل : فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء . وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التى ترقى بنفوسهم فى سلم الكمال ، وتدرجت بهم فى الأحكام التى يستقيم بها منهج حياتهم على الحق ، وتنتظم شئون مجتمعهم علي الطريق الأقوم .

(جـ) تمييز الناسخ من المنسوخ : فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد ، ويختلف الحكم فى إحداها عن الأخرى ، فإذا عُرِفَ ما نزل أولاً وما نزل آخراً كان حكم ما نزل آخراً ناسخاً لحكم ما نزل أولاً .

* * *

[illegible] الخلاف في أول ما نزل [illegible]
من نزل إلى عشرة أقوال.
السبب في تلك الخلاف في أول ما نزل هو ورود [illegible]
أما آخر ما نزل فلم يأت هناك دليل صريح صحيح [illegible]
عبارة عن اجتهادات [illegible]
التدرج في تحريم الخمر * التدرج في [illegible]

(١) الحجر . ٩

٦
أسباب النزول

نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المحجة الواضحة ، ويرشدها إلى الطريق المستقيم ، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التى تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته ، ويقرر أحوال الماضى ، ووقائع الحاضر ، وأخبار المستقبل .

وأكثر القرآن نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة ، ولكن الصحابة رضى الله عنهم فى حياتهم مع رسول الله ﷺ قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه ، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله ﷺ عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه ، فيتنزل القرآن لذلك الحادث ، أو لهذا السؤال الطارىء ، ومثل هذا يُعرف بأسباب النزول .

● عناية العلماء به :

وقد اعتنى الباحثون فى علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ، ولمسوا شدة الحاجة إليه فى تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف ، ومن أشهرهم : « علىّ بن المدينى » شيخ البخارى ، ثم « الواحدى » (١) فى كتابه « أسباب النزول » ، ثم «الجعبرى » (٢) الذى اختصر كتاب « الواحدى » بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، ثم شيخ الإسلام « ابن حجر » (٣) الذى ألَّف كتاباً فى أسباب النزول أطلع السيوطى على جزء من مسودته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملاً ، ثم

(١) هو أبو الحسن علىّ بن أحمد النحوى المفسر ، توفى سنة ٤٢٧ هجرية .

(٢) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر ، كان له عناية بعلوم القرآن ، فألَّف « روضة الطرائف فى رسم المصاحف » و « كنز المعانى » وهو شرح للشاطبية فى القراءات ، توفى سنة ٧٣٢ هجرية .

(٣) هو أبو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلانى واسمه أحمد بن علىّ - يُنسب إلى عسقلان بفلسطين . كان له عناية بالحديث ، واشتهر بعلومه ، وكتبه عماد فى هذا الفن - توفى سنة ٨٥٢ هجرية .

« السيوطى » [1] الذى قال عن نفسه : « وقد ألّفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يُؤلَّف مثله فى هذا النوع ، سميته « لُباب المنقول فى أسباب النزول » [2] .

⁂ ⁂ ⁂

ما يُعتَمد عليه فى معرفة سبب النزول

والعلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة ، فإن إخبار الصحابى عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأى ، بل يكون له حكم المرفوع ، قال الواحدى : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجَدُّوا فى الطلب » وهذا هو نهج علماء السَلَف ، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً فى ذلك دون تثبت ، قال « محمد بن سيرين » [3] : سألت « عَبيدة » [4] عن آية من القرآن فقال : اتَّقِ الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن ، وهو يعنى الصحابة . وإذا كان هذا هو قول « ابن سيرين » من أعلام علماء التابعين تحرياً للرواية ، ودقة فى النقل ، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة ، ولذا فإن المعتمَد من ذلك فيما رُوِىَ من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند ، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول .

وذهب « السيوطى » إلى أن قول التابعى إذا كان صريحاً فى سبب النزول فإنه يُقبَل ، ويكون مُرْسلاً ، إذا صح المُسْنَد إليه وكان من أئمة التفسير الذين

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٢٨

(٣) تابعى من علماء البصرة ، اشتهر بعلوم الحديث ، وتعبير الرؤيا ، وتوفى سنة ١١٠ هجرية .

(٤) هو عَبيدة - بالفتح - بن عمرو السلمانى ، أسلم قبل وفاة النبى ﷺ بسنتين ولم يلقه ، وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه .

أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعِكرمة وسعيد بن جبير ، واعتمد بمرسل آخر [1] .

وقد أخذ « الواحدى » على علماء عصره تساهلهم فى رواية سبب النزول ، ورماهم بالإفك والكذب ، وحذَّرهم من الوعيد الشديد ، حيث يقول : « أما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً ويختلق إفكاً وكذباً ، ملقياً زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر فى الوعيد للجاهل بسبب الآية » [2] .

⁂ ⁂ ⁂

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين :

١ - أن تحدث حادثة فينتزل القرآن الكريم بشأنها ، وذلك كالذى رُوِىَ عن ابن عباس قال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [3] .. خرج النبى ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىَّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدىَّ عذاب شديد ، فقال أبو لهب [3] : تباً لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [4] .

٢ - أن يُسأل رسول الله ﷺ عن شىء فينتزل القرآن ببيان الحكم فيه ، كالذى كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهَرَ [5] منها زوجها أوس بن الصامت ، فذهبت تشتكى من ذلك ، عن عائشة قالت : « تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علىَّ بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ونثرتُ له بطنى

(١) انظر الإتقان جـ ١ ص ٣١

(٢) الشعراء : ٢١٤

(٣) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما - (والآية من سورة المسد : ١) .

(٥) الظهار : أن يقول الرجل لامرأته : أنتِ علىَّ كظهر أمى ، واختلفوا فى غير هذه الصيغة .

حتى إذا كبر سنِّى وانقطع ولدى ظاهَرَ منى ! اللّهم إنى أشكو إليك ، قالت : فما بَرِحَتْ حتى نزل جبريل بهؤلا . الآيات : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ وهو أوس بن الصامت » [1] .

ولا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً ، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع ، أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً ، بعقائد الإيمان ، وواجبات الإسلام ، وشرائع الله تعالى فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، قال « الجعبرى » : « نزل القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداءً ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال » [2] .

ولذا يُعرَّف سبب النزول بما يأتى : « هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال » .

ومن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسع فيه ، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة ، قال السيوطى : « والذى يتحرر فى سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شىء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره فى قوله : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [3] سبب اتخاذه خليلاً ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى » [4] .

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى - (والآية من سورة المجادلة : ١) .
(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٢٨
(٣) النساء : ١٢٥
(٤) انظر الإتقان جـ ١ ص ٣١

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها :

(أ) بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمة بالأمة .

(ب) تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند مَن يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، وهى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح ، وقد يُمثَّل لهذا بقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [1] فقد رُوِىَ أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أُوتِىَ وأحب أن يُحْمَد بما لم يفعل يُعذَّب لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما نزلت فى أهل الكتاب . ثم تلا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [2] ... الآية . قال ابن عباس : سألهم رسول الله ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخذوا بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أُوتوا من كتمان ما سألهم عنه » [3] .

(جـ) إذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تُقصر التخصيص على ما عدا صورته ، ولايصح إخراجها ، لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعى ، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظنى ، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يُمثَّل لهذا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [4] .. فإن هذه الآية نزلت فى عائشة خاصة ، أو فيها وفى سائر أزواج النبى ﷺ ،

(١) آل عمران : ١٨٨
(٢) آل عمران : ١٨٧
(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .
(٤) النور : ٢٣ - ٢٥

« عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ ... الآية : نزلت فى عائشة خاصة » [1] وعن ابن عباس فى هذه الآية أيضاً : « هذه فى عائشة وأزواج النبى ﷺ ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى ﷺ التوبة - ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [2] . وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مُخَصَّصاً لعموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [3] لا يتناول بالتخصيص مَن قذف عائشة ، أو قذف سائر أزواج النبى ﷺ ، فإن هذا لا توبة له ، لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعى .

(د) ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معانى القرآن ، وكشف الغموض الذى يكتنف بعض الآيات فى تفسيرها ما لم يُعرف سبب نزولها ، قال الواحدى: « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » وقال ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » وقال ابن تيمية : « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » [4] ومن أمثلة ذلك : ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم الآية الآنفة الذكر : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [5] حتى أورد له ابن عباس سبب النزول .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير) - والآيتان من سورة النور : ٤ - ٥

(٣) النور : ٢٣

(٤) انظر الإتقان جـ ١ ص ٢٨

(٥) آل عمران : ١٨٨

ومثله آية : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض ، لأن رفع الجُناح يفيد الإباحة لا الوجوب ، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكاً بالظاهر [2] ، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها ، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، حيث كان على الصفا أساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما : « عن عائشة أن عروة قال لها : أرأيت قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ؟ فما أرى على أحد جُناحاً أن لا يَطَّوَّف بهما ؟ فقالت عائشة : بئس ما قلت يابن أختى ، إنها لو كانت على ما أوَّلتها كانت : فلا جناح عليه أن لا يَطَّوَّف بهما ، ولكنها إنما أُنزلت ، أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهِلُّون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها ، وكان مَن أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ... الآية . قالت عائشة : ثم قد بيَّن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » [3] .

(هـ) ويوضح سبب النزول مَن نزلت فيه الآية حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل . كالذى ذُكر فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [4] فقد أراد « معاوية » أن يستخلف « يزيد » وكتب إلى « مروان » عامله على المدينة بذلك ، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة « يزيد » فأبَى

---

(١) البقرة : ١٥٨

(٢) حكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول : إن السعى واجب وليس بركن وعلى تاركه دم - وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين .

(٣) أخرجه الشيخان وغيرهما .

(٤) الأحقاف : ١٧

عبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايع ، فأراده « مروان » بسوء لولا أن دخل بيت عائشة ، وقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى ﴾ فردت عليه عائشة وبيّنت له سبب نزولها ، « عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ فقالت عائشة : « ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى » [1] ، وفى بعض الروايات : « إن مروان لما طلب البيعة ليزيد قال : سُنّة أبى بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سُنّة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ ... الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته » [2] .

* * *

العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب فى العموم ، أو اتفق معه فى الخصوص ، حُمِلَ العام على عمومه ، والخاص على خصوصه .

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [3] عن أنس قال : « إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسُئِلَ رسول الله ﷺ عن

(١) أخرجه البخارى .
(٢) أخرجه عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد ، قال : لما بايع مروان لابنه قال مروان .. إلخ .
(٣) البقرة : ٢٢٢

ذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ ... الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « جامعوهن فى البيوت ، واصنعوا كل شىء إلا النكاح » [1] .

ومثال الثانى قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [2] فإنها نزلت فى أبى بكر ، والأتقى : أفعل تفضيل مقرون بـ « الـ » العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وإنما تفيد « الـ » العموم إذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع على الراجح ، و « الـ » فى « الأتقى » ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل ، و« الأتقى » ليس جمعاً ، بل هو مفرد ، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز ، وذلك كاف فى قصر الآية على مَن نزلت فيه ، ولذا قال الواحدى : الأتقى أبو بكر الصدّيق فى قول جميع المفسرين : « عن عروة أن أبا بكر الصدّيق أعتق سبعة كلهم يُعَذَّب فى الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وأُم عيسى ، وأمة بنى المؤمل ، وفيه نزلت : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ ... إلى آخر السورة [3] ، ورُوِىَ نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه : « فنزلت هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [4] ... إلى قوله : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [5] .

أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت الآية بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون: أتكون العبرة بعموم اللّفظ أم بخصوص السبب ؟

١ - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللّفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللّعان التى نزلت فى قذف هلال بن أُميّة زوجته : « فعن ابن عباس : أن هلال ابن أُميّة قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء . فقال النبى ﷺ :

(١) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم . (٢) الليل : ١٧ - ٢١
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم . (٤) الليل : ٥ (٥) أخرجه الحاكم وصححه .

« البَيِّنَةُ وإلا حدٌ فى ظهرك » ، فقال : يا رسول الله .. إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البَيِّنة ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول : « البَيِّنَةُ وإلّا حَدٌ فى ظهرك » ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولَيُنزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد ، ونزل جبريل فأنزل عليه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (١) ... حتى بلغ : ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) » (٣) .. فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر .

وهذا هو الرأى الراجح والأصح ، وهو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة ، والذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها . كنزول آية الظهار فى أوس بن الصامت ، أو سلمة بن صخر - على اختلاف الروايات فى ذلك ، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم ، قال ابن تيمية : « قد يجىء هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت فى كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم : إن آية الظهار نزلت فى امرأة أوس بن الصامت ، وإن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، وأن قوله : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤) نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسُنّة تختص بالشخص المعيَّن ، وإنما غاية ما يُقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التى لها سبب معين إن كانت

(١) النور : ٦ (٢) النور : ٩
(٣) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجه . (٤) المائدة : ٤٩

أمراً أو نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كان خبراً يمدح أو يذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته » .

٢ - وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص ، ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه ، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ، ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

* * *

صيغة سبب النزول

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصاً صريحاً فى السببية ، وإما أن تكون محتملة .

فتكون نصاً صريحاً فى السببية إذا قال الراوى : « سبب نزول هذه الآية كذا » ، أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال ، كما إذا قال : « حدث كذا » أو « سُئِلَ رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت الآية » - فهاتان صيغتان صريحتان فى السببية سيأتى لهما أمثلة (١) .

وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام إذا قال الراوى : « نزلت هذه الآية فى كذا » فذلك يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أنه داخل فى معنى الآية .

وكذلك إذا قال : « أحسب هذه الآية نزلت فى كذا » أو « ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا » فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب - فهاتان صيغتان تحتملان السببية وغيرها كذلك . ومثال الصيغة الأولى ما رُوِىَ عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلت : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ (٢) ... الآية . فى إتيان النساء فى أدبارهن » (٣) .

(١) انظر أمثلة تعدد الروايات فى سبب النزول التى ستأتى بعد هذه الفقرة .
(٢) البقرة : ٢٢٣ (٣) أخرجه البخارى .

ومثال الصيغة الثانية ما رُوِىَ عن عبد الله بن الزبير « أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة ، وكانا يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى ، سرِّح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك » ، فغضب الأنصارى وقال : يا رسول الله ، آن كان ابن عمتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجُدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك » . واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استرعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية إلا فى ذلك : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [1] قال ابن تيمية : « قولهم : نزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى : « نزلت هذه الآية فى كذا » ، هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟ فالبخارى يُدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند » [2] وقال الزركشى فى البرهان: « قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : « نزلت هذه الآية فى كذا » فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع » [3] .

* * *

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم - (والآية من سورة النساء : ٦٥) .

(٢) المراد بالإسناد هنا أن يكون مسنداً إلى الرسول ﷺ ، بمعنى أن يكون مرفوعا . وإن كان من قول الصحابى ، لأنه لا مجال للاجتهاد فيه .

(٣) انظر الإتقان جـ ١ ص ٣١

تعدد الروايات فى سبب النزول

قد تتعدَّد الروايات فى سبب نزول آية واحدة ، وفى مثل هذه الحالة يكون موقف المفسِّر منها على النحو الآتى :

(أ) إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة مثل : « نزلت هذه الآية فى كذا » أو « أحسبها نزلت فى كذا » فلا منافاة بينها ، إذ المراد التفسير ، وبيان أن ذلك داخل فى الآية ومستفاد منها ، وليس المراد ذكر سبب النزول ، إلا إن قامت قرينة على واحدة بأن المراد بها السببية .

(ب) إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله : « نزلت فى كذا » وصرَّح آخر بذكر سبب مخالف فالمُعتمَد ما هو نص فى السببية ، وتُحمل الأخرى على دخولها فى أحكام الآية ، ومثال ذلك ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [1] : « عن نافع قال : قرأتُ ذات يوم : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ فقال ابن عمر : أتدرى فيم أُنزلت هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن » [2] فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة فى السببية ، وقد جاء التصريح بذكر سبب يخالفه « عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قُبلها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [3] » فجابر هو المعتمَد لأن كلامه نقل صريح ، وهو نص فى السبب ، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيُحمل على أنه استنباط وتفسير .

(جـ) وإذا تعدَّدت الروايات وكانت جميعها نصاً فى السببية وكان إسناد أحدها صحيحاً دون غيره فالمتعمَد الرواية الصحيحة ، مثل : ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب البجلى قال : « اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم

(١) البقرة : ٢٢٣ (٢) أخرجه البخارى وغيره .

(٣) أخرجه البخارى وأهل السنن وغيرهم .

يقربك ليلتين أو ثلاثة ، فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [1] » وأخرج الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص ابن ميسرة عن أمه عن أمها - وكانت خادم رسول الله ﷺ - « أن جرواً دخل بيت النبى ﷺ ، فدخل تحت السرير ، فمات ، فمكث النبى ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى ، فقال : ياخولة ، ما حدث فى بيت رسول الله (ﷺ) ؟ جبريل لا يأتينى ! فقلت فى نفسى : لو هيأتُ البيت وكنسته ، فأهويتُ بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فقال : يا خولة دثّرينى فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ قال ابن حجر فى شرح البخارى : « قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفى إسناده مَن لا يُعرف ، فالمعتمَد ما فى الصحيحين » [2] .

(د) فإذا تساوت الروايات فى الصحة وَوُجِدَ وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً أو كون إحداها أصح قُدِّمت الرواية الراجحة ، ومثال ذلك ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال : « كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ، فقالوا : حدِّثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفتُ أنه يُوحَىٰ إليه ، حتى صعد الوحى ، ثم قال : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [3] .. وقد أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : « قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ... الآية ، فهذه الرواية تقتضى أنها نزلت بمكة حيث كانت قريش . والرواية الأولى تقتضى أنها نزلت بالمدينة ، وتُرجَّح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة . ثم لما عليه الأمة من تلقّى صحيح البخارى بالقبول وترجيحه على ما صح فى غيره .

---

(١) الضحى : ١ - ٣

(٢) انظر الاتقان ، جـ ١ ص ٣٢ ، وخولة : هى خادم رسول الله ﷺ .

(٣) الإسراء : ٨٥

وقد اعتبر « الزركشى » هذا المثال من باب تعدد النزول وتكرره [1] ، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين : مرة بمكة ، ومرة بالمدينة ، واستند فى ذلك إلى أن سورة « سبحان » مكية بالاتفاق .

وإنى أرى أن كون السورة مكية لا ينفى أن تكون آية منها أو أكثر مدنية ، وما أخرجه البخارى عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ مدنية ، فالوجه الذى اخترناه من ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذى عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره . ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جواباً عن سؤال فإن تكرار السؤال نفسه بالمدينة لا يقتضى نزول الوحى بالجواب نفسه مرة أخرى ، بل يقتضى أن يجيب الرسول ﷺ بالجواب الذى نزل عليه من قبل .

(هـ) إذا تساوت الروايات فى الترجيح جُمِعَ بينها إن أمكن ، فتكون الآية قد نزلت بعد السببين أو الأسباب لتقارب الزمن بينها ، كآيات اللِّعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ [2] فقد أخرج البخارى والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس أنها نزلت فى هلال بن أُميَّة ، قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، كما ذكرنا من قبل [3] .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : « جاء عويمر إلى عاصم بن عدى ، فقال : سل رسول الله ﷺ عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيُقتل به أم كيف يصنع ؟ ... » فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أولاً ، وصادف مجىء عويمر كذلك . فنزلت فى شأنهما معاً بعد حادثتيهما . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب .

(و) إن لم يمكن الجمع لتباعد الزمن فإنه يُحْمَل على تعدد النزول وتكرره ، ومثاله : ما أخرجه الشيخان عن المسيب قال : « لما حضر أبا طالب الوفاة دخل

---

(١) انظر البرهان : جـ ١ ص ٣٠ .

(٢) النور : ٦ - ٩

(٣) انظر صحفة ٨٣ ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال : أى عم ، قل : لا إله إلاّ الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال : هو على ملة عبد المطلب ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنه » ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَنْ يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وأخرج الترمذى عن علىّ قال : « سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت » .

وأخرج الحاكم وغيره عن ابن مسعود قال : « خرج النبى ﷺ يوماً إلى المقابر ، فجلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ثم بكى ، فقال : « إن القبر الذى جلستُ عنده قبر أمى ، وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى ، فأنزل علىّ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَنْ يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ نجمع بين هذه الروايات بتعدد النزول .

ومن أمثلته كذلك ما رُوِىَ عن أبى هريرة : « أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استُشهد وقد مُثِّلَ به ، فقال : « لأمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك » ، فنزل جبريل والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (٢) ... إلى آخر السورة » (٣) فهذا يدل على نزولها يوم أحد .

وجاء فى رواية أخرى أنها نزلت يوم فتح مكة (٤) ، والسورة مكية ، فجمع بين ذلك ، بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة مع السورة ، ثم بأحد ، ثم يوم الفتح ، ولا مانع من ذلك لما فيه من التذكير بنعمة الله على عباده واستحضار شريعته ، قال الزركشى فى البرهان : « وقد ينزل الشىء مرتين تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً

(١) التوبة : ١١٣ (٢) النحل : ١٢٦

(٣) أخرجه البيهقى والبزار عن أبى هريرة .

(٤) أخرجها الترمذى والحاكم عن أبى بن كعب .

عند حدوث سببه خوف نسيانه ، كما قيل فى الفاتحة ، نزلت مرتين : مرة بمكة ، وأخرى بالمدينة » .

هذا ما يذكره علماء الفن فى تعدد النزول وتكرره ، ولا أرى لهذا الرأى وجهاً مستساغاً ، حيث لا تتضح الحكمة من تكرار النزول . وإنما أرى أن الروايات المتعددة فى سبب النزول ولا يمكن الجمع بينها يتأتى فيها الترجيح . فالروايات الواردة فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَنْ يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ... الآية ، ترجح فيها الرواية الأولى على الروايتين الأخيرتين ، لأنها وردت فى الصحيحين دونهما ، وحسبك برواية الشيخين قوة . فالراجح أن الآية نزلت فى أبى طالب . وكذلك الشأن فى الروايات التى وردت فى سبب نزول خواتيم سورة النحل ، فإنها ليست فى درجة سواء . والأخذ بأرجحها أولى من القول بتعدد النزول وتكرره .

والخلاصة .. أن سبب النزول إذا تعدّد : فإما أن يكون الجميع غير صريح ، وإما أن يكون الجميع صريحاً ، وإما أن يكون بعضه غير صريح وبعضه صريحاً ، فإن كان الجميع غير صريح فى السببية فلا ضرر حيث يُحمل على التفسير والدخول فى الآية (أ) وإن كان بعضه غير صريح وبعضه الآخر صريحاً فالمعتمد هو الصريح (ب) وإن كان الجميع صريحاً فلا يخلو ، إما أن يكون أحدهما صحيحاً أو الجميع صحيحاً ، فإن كان أحدهما صحيحاً دون الآخر فالصحيح هو المعتمَد (جـ) وإن كان الجميع صحيحاً فالترجيح إن أمكن (د) وإلا فالجمع إن أمكن (هـ) وإلا حُمِلَ على تعدد النزول وتكرره (و) وفى هذا القسم الأخير مقال ، وفى النفس منه شىء .

* * *

(١) التوبة : ١١٣

- تعدد النزول مع وحدة السبب :

قد يتعدَّد ماينزل والسبب واحد ، ولا شيء في ذلك ، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتَّى . ومثاله : ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة قالت : « يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ... الآية [١] .

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت : « قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال ؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ [٢] .... إلى آخر الآية .

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت : تغزو الرجال ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [٣] الآية ، وأنزل : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد .

* * *

تقدم نزول الآية على الحكم

يذكر « الزركشي » نوعاً يتصل بأسباب النزول يسميه : « تقدم نزول الآية على الحكم » [٤] والمثال الذي ذكره في ذلك لا يدل على أن الآية تنزل في حكم خاص ثم لا يكون العمل بها إلا مؤخراً ، وإنما يدل على أن الآية قد تنزل بلفظ

(١) آل عمران : ١٩٥

(٢) الأحزاب : ٣٥

(٣) النساء : ٣٢

(٤) انظر : البرهان ، جـ ١ ص ٣٢

مجمل يحتمل أكثر من معنى ثم يُحمل تفسيرها على أحد المعاني فيما بعد فتكون دليلاً على حكم متأخر . جاء في « البرهان » : « واعلم أنه قد يكون النزول سابقاً على الحكم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [١] فإنه يُستدل بها على زكاة الفطر ، روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان ، ثم أسند مرفوعاً نحوه ، وقال بعضهم : لا أدري ما وجه هذا التأويل ؟ لأن هذه السورة مكية ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة » .

وأجاب البغوي [٢] في تفسيره بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم ، كما قال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ [٣] فالسورة مكية ، وظهر أثر الحلّ يوم فتح مكة ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « أُحلت لي ساعة من نهار » [٤] .

وكذلك نزل بمكة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [٥] قال عمر بن الخطاب : كنت لا أدري : أي الجمع يُهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

فأنت ترى فيما ذكره صاحب البرهان أن صيغة سبب النزول محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام « روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان » ، والآيات التي ذكرها مُجْمَلة تحتمل أكثر من معنى ، أو جاءت بصيغة الإخبار عما يحدث في المستقبل ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

* * *

(١) الأعلى : ١٤ .

(٢) هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد البغوي ، الفقيه الشافعي ، صاحب كتاب « مصابيح السُّنَّة » في الحديث و « معالم التنزيل » في التفسير ، توفي سنة ٥١٠ هجرية .

(٣) البلد : ١ - ٢

(٤) من حديث في الصحيحين ، والآية تحتمل ثلاثة معان : أن يكون « حل » من الحلول بالمكان والنزول به . فيكون حلوله بالبلد الأمين مناطاً لإعظامه بالإقسام به ، أو يكون « حل » من الحلال بمعنى المباح ، فإنهم قد استحلوه عليه الصلاة والسلام في هذا البلد الحرام ، أو يكون المعنى : وأنت حلٌ في المستقبل ، وهذا الرأي الأخير هو الذي يكون النزول فيه سابقاً للحكم .

(٥) القمر : ٤٥

تعدد ما نزل فى شخص واحد

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من واقعة ، وينزل القرآن بشأن كل واقعة منها ، فيتعدد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع ، ومثاله : ما رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » فى بر الوالدين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « نزلت فىّ أربع آيات من كتاب الله عز وجل : كانت أمى حلفت ألا تأكل ولا تشرب ، حتى أفارق محمداً ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (١) .

والثانية : أنى كنت أخذت سيفاً فأعجبنى فقلتُ : يا رسول الله ، هب لى هذا السيف ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾ (٢) .

والثالثة : أنى كنت مرضت فأتانى رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، إنى أريد أن أُقسِّم مالى ، أفأُوصى بالنصف ؟ فقال : لا ، فقلت : الثلث ، فسكت ، فكان الثلث بَعْدُ جائزاً (٣) .

والرابعة : أنى شربت الخمر مع قوم من الأنصار ، فضرب رجل منهم أنفى بلحى جمل ، فأتيت رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر » .

ويُعتبر من هذا القبيل موافقات عمر رضى الله عنه ، فقد نزل الوحى موافقاً لرأيه فى عدة آيات .

* * *

(١) لقمان : ١٥ (٢) الأنفال : ١

(٣) نزل فى الوصية قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) ولم يأت التصريح بنزول الآية فى نص الحديث .

الاستفادة من معرفة أسباب النزول فى مجال التربية والتعليم

يعانى المربون فى مجال الحياة التعليمية كثيراً من المتاعب فى استخدام الوسائل التربوية لإثارة انتباه الطلاب حتى تتهيأ نفوسهم للدرس فى شوق يستجمع قواهم العقلية ويرغبهم فى الاستماع والمتابعة ، والمرحلة التمهيدية من مراحل الدرس تحتاج إلى فطنة لمّاحة تُعين المدرس على اجتذاب مشاعر الطلاب لدرسه بشتّى الوسائل المناسبة ، كما تحتاج إلى ممارسة طويلة تُكسبه خبرة فى حسن اختيار الربط بين معلوماتهم دون تعسف يكلفه شططاً .

وكما تهدف المرحلة التمهيدية فى الدرس إلى إثارة انتباه الطلاب واجتذاب مشاعرهم فإنها تهدف كذلك إلى التصور الكلى للموضوع ، كى يسهل على المدرس أن ينتقل بطلابه من الكلى للجزئى إلى أن يستوعب عناصر الدرس تفصيلاً بعد أن تصوّره طلابه جملة .

ومعرفة أسباب النزول هى السبيل الأفضل لتحقيق تلك الأهداف التربوية فى دراسة القرآن الكريم تلاوة وتفسيراً .

إن سبب النزول إما أن يكون قصة لحادثة وقعت ، وإما أن يكون سؤالاً طرح على رسول الله ﷺ لاستكشاف حكم فى موضوع ، فينزل القرآن إثر الحادثة أو السؤال ، فلن يجد المدرس نفسه فى حاجة لمعالجة التمهيد للدرس بشىء يبتكره ويختاره ، إذ أنه إذا ساق سبب النزول كانت قصته كافية فى إثارة انتباه الطلاب ، واجتذاب مشاعرهم ، واستجماع قواهم العقلية ، وتهيئة نفوسهم لتقبل الدرس ، وتشويقهم للاستماع إليه ، وترغيبهم فى الحرص عليه ، فهم يتصوّرن الدرس بمعرفة سبب النزول تصوراً عاماً بما فيه من عناصر القصة المثيرة ، فتتوق نفوسهم إلى معرفة ما نزل ملائماً له وما يتضمنه من أسرار تشريعية وأحكام تفصيلية ، تهدى الإنسانية إلى نهج الحياة الأقوم ، وصراطها المستقيم ، وسبيل عزها ومجدها وسعادتها .

وعلى المربين فى مجال الحياة التربوية التعليمية الخاصة بقاعد الدرس أو العامة فى التوجيه والإرشاد أن يستفيدوا من سياق أسباب النزول فى التأثير على الطلاب الدارسين وجماهير المسترشدين ، فذلك أجدى وأنفع وأهدى سبيلاً لتحقيق الأهداف التربوية بأروع معانيها وأرقى صورها .

* * *

المناسبات بين الآيات والسور

كما أن معرفة سبب النزول لها أثرها فى فهم المعنى وتفسير الآية ، فإن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ، ودقة الفهم ، ولذا أفرد بعض العلماء هذا المبحث بالتصنيف [1] .

والمناسبة فى اللغة : المقاربة ، يقال فلان يناسب فلاناً أى يقرب منه ويشاكله ، ومنه المناسبة فى العِلّة فى باب القياس ، وهى الوصف المقارب للحكم .

والمراد بالمناسبة هنا : وجه الارتباط بين الجملة والجملة فى الآية الواحدة - أو بين الآية والآية فى الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة .

ولمعرفة المناسبة فائدتها فى إدراك اتساق المعانى ، وإعجاز القرآن البلاغى ، وإحكام بيانه ، وانتظام كلامه ، وروعة أسلوبه ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [2] ..

قال الزركشى : « وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ».

(١) ممن صنّف فيه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى النحوى الحافظ المتوفى سنة ٨٠٧ هجرية فى كتاب سماه « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » (مخطوط) ، وللشيخ برهان الدين البقاعى كتاب فى هذا سماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وقد طبعته دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٨٩ هـ ، وانظر هذا المبحث فى « البرهان » للزركشى ، جـ ١ ص ٣٥

(٢) هود : ١

وقال القاضى أبو بكر بن العربى : « ارتباط آى القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، علم عظيم » .

ومعرفة المناسبات والربط بين الآيات ليست أمراً توقيفياً ، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد ، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى ، منسجمة مع السياق ، متفقة مع الأصول اللُغوية فى علوم العربية ، كانت مقبولة لطيفة .

ولا يعنى هذا أن يلتمس المفسِّر لكل آية مناسبة ، فإن القرآن الكريم نزل مُنَجَّماً حسب الوقائع والأحداث ، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها ، فلا ينبغى أن يعتسف المناسبة اعتساناً ، وإلا كانت تكلفاً ممقوتاً ، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام [1] : « المناسبة علم حسن ، ولكن يُشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره : فإن وقع على أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر » . ثم قال : « ومَن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يُصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » .

وقد عَنِىَ بعض المفسرين ببيان المناسبة بين الجُمَل ، أو بين الآيات ، أو بين السور [2] واستنبطوا وجوه ارتباط دقيقة .

فالجملة قد تكون تأكيداً لما قبلها ، أو بياناً ، أو تفسيراً ، أو اعتراضاً تذييلياً - ولهذا أمثلته الكثيرة .

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز ، كان عالماً مجاهداً ورعاً ، توفى سنة ٦٦٠ هجرية .

(٢) وجه الارتباط بين السور مبنى على أن ترتيب السور توقيفى ، وقد اختلف العلماء فى ذلك كما سيأتى .

وللآية تعلقها بما قبلها على وجه من وجوه الارتباط يجمع بينها ، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين . ووعيد هؤلاء ووعد أولئك ، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب ، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب ، وآيات التوحيد والتنزيه بعد الآيات الكونية ... وهكذا .

وقد تكون المناسبة فى مراعاة حال المخاطبين كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (١) فجمع بين الإبل والسماء والجبال مراعاة لما جرى عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين فى البادية ، حيث يعتمدون فى معايشهم على الإبل ، فتنصرف عنايتهم إليها ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذى يُنبت المرعى وترده الإبل ، وهذا يكون بنزول المطر ، وهو سبب تقلب وجوههم فى السماء ، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شىء أمنع كالجبال ، وهم يطلبون الكلأ والماء فيرحلون من أرض ويهبطون أخرى ، ويتنقلون من مرعى أجدب إلى مرعى أخصب ، فإذا سمع أهل البادية هذه الآيات خالطت شغاف قلوبهم بما هو حاضر لا يغيب عن أذهانهم .

وقد تكون المناسبة بين السورة والسورة ، كافتتاح سورة « الأنعام » بالحمد : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٢) فإنه مناسب لختام سورة « المائدة » فى الفصل بين العباد ومجازاتهم : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٣) ... إلى آخر السورة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٤) ، وكافتتاح سورة « الحديد » بالتسبيح : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٥) فإنه مناسب

(١) الغاشية : ١٧ - ٢٠ (٢) الأنعام : ١ (٣) المائدة : ١١٨
(٤) الزمر : ٧٥ (٥) الحديد : ١

لختام سورة « الواقعة » من الأمر به : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ (١) .. وكارتباط سورة ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ (٢) بسورة « الفيل » فإن هلاك أصحاب الفيل كانت عاقبته تمكين قريش من رحلتيها شتاءً وصيفاً ، حتى قال الأخفش : اتصالها بها من باب قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ (٣)

وقد تكون المناسبة بين فواتح السور وخواتمها .. ومن ذلك ما فى سورة « القصص » فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام ، وبيان مبدأ أمره ونصره ، ثم ما كان منه عندما وجد رجلين يقتتلان .

وحكى الله دعاءه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٤) ، ثم ختم الله السورة بتسلية رسولنا ﷺ بخروجه من مكة والوعد بعودته إليها ، ونهيه عن أن يكون ظهيراً للكافرين : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ، قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٥) ..

ومَنْ تتبع كتب التفسير وجد كثيراً من وجوه المناسبات .

* * *

(١) الواقعة : ٩٦ (٢) سورة قريش . (٣) القصص : ٨
(٤) القصص : ١٧ (٥) القصص : ٨٥ - ٨٦ .

نزول القرآن

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد ﷺ لهداية البشرية ، فكان نزوله حدثاً جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض ، فإنزاله الأول فى ليلة القدر أشعر العالم العُلوى من ملائكة الله بشرف الأمة المحمدية التى أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أُمة أُخرجت للناس ، وتنزيله الثانى مفرّقاً على خلاف المعهود فى إنزال الكتب السماوية قبله آثار الدهشة التى حملت القوم على المماراة فيه ، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية ، فلم يكن الرسول ﷺ ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صَلَفٍ وعِنَاد ، فكان الوحى يتنزّل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه ، وتسلية له ، وتدرجاً مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين ، وأتم النعمة .

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَىٰ وَالفُرْقَانِ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ (٣) .

ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث ، فالليلة المباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان ، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملى فى حياة رسول الله ﷺ ، حيث نزل القرآن عليه فى ثلاث وعشرين سنة .. وللعلماء فى هذا مذهبان أساسيان :

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١ (٣) الدخان : ٣

١ - المذهب الأول : وهو الذى قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء - أن المراد بنزول القرآن فى تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته ، ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّماً على رسولنا محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة (١) حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه ، حيث أقام فى مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات : فعن ابن عباس قال : « بُعِثَ رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه ، ثم أُمِرَ بالهجرة عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين » (٢) .

وهذا المذهب هو الذى جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس فى عدة روايات :

(أ) عن ابن عباس قال : « أُنْزِلَ القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر . ثم أُنْزِلَ بعد ذلك فى عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٣) .. ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٤) ..

(ب) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضِعَ فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ » (٥) .

(جـ) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن جُمْلَةً واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض » (٦) .

(١) وقدّر بعض العلماء مدة نزول القرآن بعشرين سنة ، وبعضهم بخمس وعشرين سنة لاختلافهم فى مدة إقامته ﷺ - بعد البعثة - بمكة ، أكانت ثلاث عشرة سنة ، أم عشر سنين ، أم خمس عشرة سنة ؟ مع اتفاقهم على أن إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات - والصواب الأول - انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٣٩

(٢) رواه البخارى . (٣) الفرقان : ٣٣

(٤) رواه الحاكم والبيهقى والنسائى - (والآية من سورة الإسراء: ١٠٦) .

(٥) رواه الحاكم . (٦) رواه الحاكم والبيهقى .

(د) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أُنْزِلَ القرآن فى ليلة القدر فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أُنْزِلَ نُجوماً » (١) .

٢ - المذهب الثانى : وهو الذى رُوِىَ عن الشعبى (٢) - أن المراد بنزول القرآن فى الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ ، فقد ابتدأ نزوله فى ليلة القدر فى شهر رمضان ، وهى الليلة المباركة ، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجاً مع الوقائع والأحداث فى قرابة ثلاث وعشرين سنة ، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجّماً على رسول الله ﷺ ، لأن هذا هو الذى جاء به القرآن : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٣) وجادل فيه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٤) . ولا يظهر للبشر مزية للشهر رمضان وليلة القدر التى هى الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله ﷺ ، وهذا يوافق ما جاء فى قوله تعالى بغزوة بدر : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) . وقد كانت غزوة بدر فى رمضان . ويؤيد هذا ما عليه المحققون فى حديث بدء الوحى ، عن عائشة قالت : « أول ما بُدِىءَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يأتى حِراء فيتحنث فيه اللّيالى ذوات العدد ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوّده لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حِراء . فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارىء

(١) رواه الطبرانى .

(٢) الشعبى : هو عامر بن شراحيل ، من كبار التابعين - وأكبر شيوخ أبى حنيفة - كان إمام فى الحديث والفقه ، وتوفى سنة ١٠٩ هجرية .

فأخذنى فَغَطَّنى حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فَغَطَّنى الثالثة حتى بلغ منى الجَهْد ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ... حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) » فإن المحققين من الشرّاح على أن الرسول ﷺ نُبِىءَ أولاً بالرؤيا فى شهر مولده شهر ربيع الأول ، ثم كانت مدتها ستة أشهر ، ثم أُوحِىَ إليه يقظة فى شهر رمضان بـ « اقرأ » وبهذا تتآزر النصوص على معنى واحد .

٣ - وهناك مذهب ثالث : يرى أن القرآن أُنْزِلَ إلى السماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر (٢) فى كل ليلة منها ما يُقَدِّر الله إنزاله فى كل السنة ، وهذا القدر الذى ينزل فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنَجَّماً على رسول الله ﷺ في جميع السنة .

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين ، ولا دليل عليه .

أما المذهب الثانى الذى رُوِىَ عن الشعبى فأدلته - مع صحتها والتسليم بها - لا تتعارض مع المذهب الأول الذى رُوِىَ عن ابن عباس . فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقاً فى ليلة القدر من شهر رمضان ، وهى الليلة المباركة .

فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان :

الأول : نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

والثانى : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرّقاً فى ثلاث وعشرين سنة .

وقد نقل القرطبى عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا . ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث فى نزول القرآن والواقع العملى فى حياة الرسول ﷺ بنزول القرآن فى ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان : عن ابن عباس :

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما - (والآيات من سورة العلق : ١ - ٥) .

(٢) أو عشرين ، أو خمس وعشرين ليلة قدر ، بناء على الخلاف السابق فى مدة إقامته بمكة .

« أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) وهذا أُنزِلَ فى شوّال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرّم وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : إنه أُنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أُنزل على مواقع النُجوم (٣) رَسْلاً (٤) فى الشهور والأيام » (٥) .

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك فى تعظيم شأن القرآن ، وتشريف المُنَزَّل عليه ، قال السيوطى : « قيل : السر فى إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر مَن نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرّبناه إليهم لينزله عليهم . ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنَجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزّلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها ، فجعل له الأمرين : إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرّقاً ، تشريفاً للمُنَزَّل عليه » . وقال السخاوى فى جمال القراء : « فى نزوله إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنه عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة أن تُشيِّع سورة الأنعام (٦) ، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السَفَرَة الكرام ، وإنساخهم إياه ، وتلاوتهم له » (٧) .

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) القدر : ١

(٣) على مواقع النجوم : أى على مثل مساقطها فى نزوله مفرقاً يتلو بعضه بعضاً .

(٤) رَسْلاً : أى على تؤدة ورفق .

(٥) أخرجه ابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات .

(٦) المشيَّع من القرآن : ما نزل منه محفوفاً بالملائكة . أخرج الطبرانى وأبو عبيد فى فضائل القرآن ، عن ابن عباس قال : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة حولها سبعون ألف مَلَك يجأرون بالتسبيح » .

(٧) انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٤٠ - ٤١

٤ - ومن العلماء مَن يرى أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ مستدلا بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (١) .. ثم نزل من اللوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة ، ثم نزل مفرّقاً ، فهذه تنزلات ثلاثة .

وهذا لا يتعارض مع ما سبق أن رجحناه ، فالقرآن الكريم مثبت فى اللوح المحفوظ شأن سائر المغيّبات المثبتة فيه ، والقرآن الكريم نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا - كما رُوِىَ عن ابن عباس - فى ليلة القدر ، والقرآن الكريم بدأ نزوله مُنجّماً - كما يرى الشعبى - على رسول الله ﷺ فى الليلة المباركة ليلة القدر من شهر رمضان ، إذ لا مانع يمنع من نزوله جملة ، ومن ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ مفرّقاً فى ليلة واحدة ، وبهذا ينتفى التعارض بين الأقوال كلها إذا استثنينا المذهب الاجتهادى الثالث الذى لا دليل له .

* * *

نزول القرآن مُنَجّماً

يقول تعالى فى التنزيل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ (٥) .

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ (٢) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥ (٣) النحل : ١٠٢

(٤) الجاثية : ٢ (٥) البقرة : ٢٣

ويقول : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية ، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله ﷺ ، وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله مُنجّماً ، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم ، فإن علماء اللُّغة يُفرّقون بين الإنزال والتنزيل ، فالتنزيل لما نزل مفرّقاً ، والإنزال أعم (٢) .

وقد نزل القرآن مُنجّماً فى ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرّقاً فى قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٣) أى جعلنا نزوله مفرّقاً كى تقرأه على الناس على مهل وتثبت ، ونزّلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث .

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزبور - فكان نزولها جملة ، ولم تنزل مفرّقة ، يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٤) فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة ، وهو ما عليه جمهور العلماء ، ولو كان نزولها مفرّقاً لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن مُنجّماً ، فمعنى قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ : هَلاَّ أُنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ ومَاله أُنزل على التنجيم ؟ ولِمَ أُنزل مفرّقاً ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سُنّته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (٥) بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ

(١) البقرة : ٩٧ (٢) انظر : مفردات الراغب . (٣) الإسراء : ١٠٦
(٤) الفرقان : ٣٢ (٥) الفرقان : ٧

الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (١) ، وكما رد عليهم فى قولهم : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ (٢) بقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (٤) بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن مُنجّماً بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى كذلك أُنزل مفرّقاً لحكمة هى تقوية قلب رسول الله ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أى قدّرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض ، أو بيّناه تبييناً ، فإن إنزاله مفرّقاً حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت .

والذى استقرىء من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة ، وصح نزول : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ وحدها وهى بعض آية » (٥) .

* * *

حكمة نزول القرآن مُنَجَّماً

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنجّماً من النصوص الواردة فى ذلك . ونُجملها فيما يأتى :

١ - الحكمة الأولى - تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ :

لقد وُجه رسول الله ﷺ دعوته إلى الناس ، فوجد منهم نفوراً وقسوة وتصدّى له قوم غلاظ الأكباد فُطِروا على الجفوة ، وجُبلوا على العناد

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) الإسراء : ٩٤
(٣) الإسراء : ٩٥ (٤) الأنبياء : ٧
(٥) نقل هذا السيوطى عن « مكى بن أبى طالب » المتوفى سنة ٣٦٧ هجرية ، فى كتاب له يسمى « الناسخ والمنسوخ » - انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٤٢ - (والآية من سورة النساء : ٩٥)

يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت ، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم ، حتى قال الله فيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) . فكان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ فترة بعد فترة ، بما يُثبِّت قلبه على الحق ، ويُشحذ عزمه للمضى قُدماً فى طريق دعوته ، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه ، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

يُبيِّن الله له سُنَّته فى الأنبياء السابقين الذين كُذِّبوا وأُوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله ، وأن قومه لم يُكذِّبوه إلا علواً واستكباراً ، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السُّنَّة الإلهية فى موكب النبوَّة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له إزاء أذى قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (٢) ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (٣) .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٤) ..

ويطمئن نفسه بما تكفَّل الله به من كفايته أمر المكذِّبين : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ (٥) ..

وهذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٦) ..

(١) الكهف : ٦ (٢) الأنعام : ٣٣ - ٣٤ (٣) آل عمران : ١٨٤
(٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) المزمل : ١٠ - ١١ (٦) هود : ١٢٠

وكلما اشتد ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه ، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً وتسلية له ، يهدد المكذِّبين بأن الله يعلم أحوالهم ، وسيجازيهم على ما كان منهم : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (٤) ، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٥) .

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ تباعاً تسلية له بعد تسلية ، وعزاء بعد عزاء ، حتى لا يأخذ منه الحزن مأخذه ولا يستبد به الأسى ، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً ، فله فى قصص الأنبياء أُسوة ، وفى مصير المكذِّبين سلوى ، وفى العدة بالنصر بُشرى ، وكلما عرض له شىء من الحزن بمقتضى الطبع البَشرى تكررت التسلية ، فثبت قلبه على دعوته ، واطمأن إلى النصر .

وهذه الحكمة هى التى رد الله بها على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (٦) .

قال أبو شامة (٧) : « فإن قيل : ما السر فى نزوله مُنجَّماً ؟ وهلاَّ أُنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٨) .. يعنون : كما أُنزل على مَن قبله من الرسل ، فأجابهم تعالى بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى أنزلناه مفرَّقاً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى لنقوِّى به قلبك ، فإن الوحى إذا كان

(١) يس : ٧٦ (٢) يونس : ٦٥ (٣) المائدة : ٦٧
(٤) الفتح : ٣ (٥) المجادلة : ٢١ (٦) الفرقان : ٣٢

(٧) أبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، الفقيه الشافعى ، له « الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » و « شرح على الشاطبية » المشهورة فى القراءات ، توفى سنة ٦٦٥ هجرية .

(٨) الفرقان : ٣٢

يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب ، وأشد عناية بالمرسَل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلك إليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل » (١) .

٢ - الحكمة الثانية - التحدى والإعجاز :

فالمشركون تمادوا فى غيهم ، وبالغوا فى عُتوّهم ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله ﷺ فى نبوّته ، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم ، كعلم الساعة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ (٢) ، واستعجال العذاب : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ (٣) فيتنزل القرآن بما يبيّن وجه الحق لهم ، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (٤) أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان .

وحيث عجبوا من نزول القرآن مُنجماً بيّن الله لهم الحق فى ذلك ، فإن تحديهم به مفرّقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز ، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله ، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم ، وذلك بنزوله مفرّقاً ، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن : « فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً » (٥) .

---

(١) انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٤١ (٢) الأعراف : ١٨٧ (٣) الحج : ٤٧
(٤) الفرقان : ٣٣ (٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس .

٣ - الحكمة الثالثة - تيسير حفظه وفهمه :

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوّن ، ثم تحفظ وتفهم: ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) ، ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ ﴾ (٢) فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة ، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته ، فكان نزوله مفرّقاً خير عون لها على حفظه فى صدروها وفهم آياته ، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة ، وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها ، واستمر هذا منهجاً للتعليم فى حياة التابعين ، عن أبى نضرة قال : « كان أبو سعيد الخدرى يعلّمنا القرآن خمس آيات بالغَداة ، وخمس آيات بالعَشى ، ويُخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات » (٣) ، وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً » (٤) .

وعن عمر قال : « تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمساً خمساً » (٥) .

٤ - الحكمة الرابعة - مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع :

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمه ، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطيبون بها من الفساد والرذيلة ، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يُجَلّى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهُدى ، ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر فكان هذا طباً لقلوبهم .

---

(١) الجمعة : ٢ (٢) الأعراف : ١٥٧ (٣) أخرجه ابن عساكر .
(٤) أخرجه البيهقى . (٥) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان .

لقد كان القرآن الكريم بادىء ذى بدىء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر . ويبيّن قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين ، وترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء .

ثم تدرّج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية . بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان ، خالصة لله ، تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن ينتزل وفق الحوادث التى تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففى مكة شُرِعَت الصلاة ، وشُرِعَ الأصل العام للزكاة مقارناً بالربا : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (١) .

ونزلت سورة الأنعام - وهى مكية - تبيّن أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد ، وتندّد بالشرك والمشركين ، وتوضّح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

(١) الروم : ٣٨ - ٣٩

عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِ شَيْـًٔا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا۟ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا۟ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا۟ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا۟ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين ، وواجبات الحياة الزوجية ، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق ، أو انتهائها بالموت ثم الإرث - أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدنى .

وأصل الزنا حُرِّم بمكة : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ الزِّنَىٰٓ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢) ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حُرمة الدماء نزل بمكة : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٣) ولكن تفصيل عُقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع : تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) فى مقام

(١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٢
(٢) الإسراء : ٣٢
(٣) الإسراء : ٣٣
(٤) النحل : ٦٧

الامتنان بنعمه سبحانه – وإذا كان المراد بالسُكر ما يُسْكِر من الخمر ، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب – وهذا ما عليه جمهور المفسرين – فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السُكر يُشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السُكر .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (١) فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم ، وفساد فى العقل ، وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، ونفّرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ (٢) فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء النهى عن قربان الصلاة فى حال السُكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا ما يقولونه فى صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٣) فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر فى الأوقات كلها .

ويوضح هذه الحكمة ما رُوِىَ عن عائشة رضى الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء : « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : « لا تزنوا » لقالوا : لا ندع الزنا أبداً » (٤) .

---

(١) البقرة : ٢١٩ (٢) النساء : ٤٣

(٣) المائدة : ٩٠ – ٩١ (٤) أخرجه البخارى .

وهكذا كان التدرج فى تربية الأمة وفق ما يمر بها من أحداث ، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته فى أسرى بدر ، فقال عمر : اضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر: أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، وأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن نُغلب من قلة ، فتلقوا درساً قاسياً فى ذلك ، ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

ولما توفى عبد الله بن أبىّ – رأس المنافقين – « دُعِىَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أبىّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ يُعَدِّد أيامه . ورسول الله ﷺ يبتسم ، ثم قال له : « إنى قد خُيِّرتُ ، قد قيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٣) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غُفِرَ له لزدت عليها » ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فُرِغَ منه ، قال عمر : فعجبت لى ولجرأتى على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا

---

(١) من حديث أخرجه أحمد عن أنس – (والآيتان من سورة الأنفال ٦٧ – ٦٨) .

(٢) أخرجه البيهقى فى الدلائل – (والآيات من سورة التوبة : ٢٥ – ٢٧)

(٣) التوبة : ٨٠

باللّه وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فما صلى رسول اللّه ﷺ على منافق بعد حتى قبضة اللّه عز وجل » (١) .

وحين تخلّف نفر من المؤمنين الصادقين فى غزوة تبوك ، وأقاموا بالمدينة ، ولم يجد رسول اللّه ﷺ لديهم عذراً هجرهم وقاطعهم حتى ضاقوا ذرعاً بالحياة ثم نزل القرآن لقبول توبتهم : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ، إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) . ويشير إلى هذا ما رُوِىَ عن ابن عباس فى نزول القرآن : « ونزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم » (٣) .

٥ – الحكمة الخامسة – الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد :

إن هذا القرآن الذى نزل مُنجّماً على رسول اللّه ﷺ فى أكثر من عشرين عاماً تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج ، دقيق السبك ، مترابط المعانى ، رصين الأسلوب ، متناسق الآيات والسور ، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعْهَد له مثيل فى كلام البشر: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٤) . ولو

(١) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وابن ماجه وغيرهم . – (والآيتان من سورة التوبة : ٨٤ – ٨٥) .

(٢) من حديث طويل أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، والثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار – (والآيتان من سورة التوبة : ١١٧ – ١١٨) .

(٣) أخرجه الطبرانى والبزار عن ابن عباس ، وأخرجه ابن أبى حاتم من وجه آخر .

(٤) هود : ١

كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل فى مناسبات متعددة ، ووقائع متتالية ، وأحداث متعاقبة ، لوقع فيه التفكك والانفصام ، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (١) .

فأحاديث رسول اللّه ﷺ – وهى فى ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم – لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض فى وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو مايدانيه اتساقاً وانسجاماً . فكيف بكلام سائر البَشر وأحاديثهم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

* * *

الاستفادة من نزول القرآن مُنَجّماً فى التربية والتعليم

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين : مراعاة المستوى الذهنى للطلاّب ، وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد .

ونحن نلحظ فى حكمة نزول القرآن مُنجّماً ما يفيدنا فى مراعاة هذين الأمرين على النحو الذى ذكرناه آنفاً ، فإن نزول القرآن الكريم تدرج فى تربية الأُمة الإسلامية تدرجاً فطرياً لإصلاح النفس البشرية ، واستقامة سلوكها ، وبناء شخصيتها ، وتكامل كيانها ، حتى استوت على سوقها ، وآتت أُكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة .

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه ، والعمل بما فيه .

(١) النساء : ٨٢

(٢) انظر هذه الحكمة فى مناهل العرفان للزرقانى جـ ١ ص ٥٤ – (والآية من سورة الإسراء : ٨٨) .

وبين نزول القرآن فى مطلع الوحى بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ منْ عَلَق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالقَلَم * عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ونزول آيات الربا والمواريث فى نظام المال ، أو نزول آيات القتال فى المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك - بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التى تلائم مستوى المجتمع الإسلامى فى تدرجه من الضعف إلى القوة ، ومن القوة إلى شدة البأس .

والمنهج الدراسى الذى لا يُراعَى فيه المستوى الذهنى للطلاب فى كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل ، أو لا يراعى تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجنى منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف .

والمدرس الذى لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيُثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظاً أو فهماً أو يحدثهم بما لا يدركون ، أو لا يراعى حالهم فى علاج ما يعرض لهم من شذوذ خُلقى أو يفشو من عادات سيئة ، فيقسو ويتعسف ، ويأخذ الأمر دون أناة وروِّية ، وتدرج وحكمة - المدرس الذى يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك . يُحَوِّل العملية التعليمية إلى متاهات موحشة ، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة .

وقس على هذا الكتاب المدرسى ، فالكتاب الذى لا تنتظم موضوعاته وفصوله ، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب ، ولا تترتب جزئياته ترتيباً محكماً منسقاً ، ولا يكون أسلوبه واضحاً فى أداء المعنى المقصود ، كتاب ينفر الطالب من قراءته ، ويحرمه من الاستفادة منه .

والهَدى الإلهى فى حكمة نزول القرآن مُنجَّماً هو الأسوة الحسنة فى صياغة مناهج التعليم ، والأخذ بأمثل الطرق فى الأساليب التربوية بقاعة الدرس ، وتأليف الكتاب المدرسى .

* * *

(١) العلق : ١ - ٥

٨

جمع القرآن وترتيبه

يُطلق جمع القرآن ويُراد به عند العلما أحد معنيين .. المعنى الأول : جمعه بمعنى حفظه ، وجماع القرآن : حفاظه ، و ذا المعنى هوالذى ورد فى قوله تعالى فى خطابه لنبيه ﷺ ، وقد كان يُحَرِّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحى حرصاً على ن يحفظه : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به * إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يُحَرِّك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به * إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : يقول إن علينا أن نجمعه فى صدرك ثم نقرأه : ﴿ فَإذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك : ﴿ فَاتَّبعْ قُرْآنَهُ ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نبينه بلسانك . وفى لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق - وفى لفظ : استمع - فإذا ذهب قرأه كما وعد الله (٢) .

المعنى الثانى : جمع القرآن بمعنى كتابته كله ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط ، وكل سورة ، فى صحيفة على حدة ، أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رُتِّبَ إحداها بعد الأخرى .

١ - (أ) جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبى ﷺ :

كان رسول الله ﷺ مولعاً بالوحى ، يترقب نزوله عليه بشوق ، فيحفظه ويفهمه ، مصداقاً لوعد الله : ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٣) فكان بذلك

(١) القيامة : ١٦ - ١٩

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس .

(٣) القيامة : ١٧

أول الحُفَّاظ ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة ، شغفاً بأصل الدين ومصدر الرسالة ، وقد نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، وكلما نزلت آية حُفظت فى الصدور ، ووعتها القلوب ، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة ، تستعيض عن أميتها فى كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها .

وقد أورد البخارى فى صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفَّاظ ، هم : عبد الله ابن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن ، وأبو الدرداء .

١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأُبَىّ بن كعب » [١] وهؤلاء الأربعة : اثنان من المهاجرين هما : عبد الله بن مسعود وسالم ، واثنان من الأنصار هما : معاذ وأُبَىّ .

٢ - وعن قتادة قال : « سألتُ أنس بن مالك : مَن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أربعة ، كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى » [٢] .

٣ - ورُوىَ من طريق ثابت عن أنس كذلك قال : « مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » [٣] .

وأبو زيد المذكور فى هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخارى عن أنس : أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه : قيس بن السكن ، قال : وكان رجلاً منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتى ، ومات ولم يدع عقباً ونحن ورثناه .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه البخارى .

وبيَّن ابن حجر فى ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفَّاظ ، وأنه كان يُلقَّب بالقارىء [١] .

وذكر هؤلاء الحفَّاظ السبعة . أو الثمانية ، لا يعنى الحصر ، فإن النصوص الواردة فى كتب السير والسُّنَن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون فى حفظ القرآن ، ويُحَفِّظونه أزواجهم وأولادهم . ويقرأون به فى صلواتهم بجوف اللَّيل ، حتى يُسمع لهم دوىٌّ كدوىِّ النحل ، وكان رسول الله ﷺ يمر على بيوت الأنصار ، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة فى بيوتهم ، عن أبى موسى الأشعرى : «أن رسول الله ﷺ قال له : لو رأيتنى البارحة وأنا أستمع لقراءتك ؟ لقد أُعطِيتَ مزماراً من مزامير داود » [٢] .

وعن عبد الله بن عمرو قال : « جمعتُ القرآن ، فقرأتُ به كل ليلة ، فبلغ النبى ﷺ فقال : اقرأه فى شهر » [٣] .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف رفقة الأشعريين باللَّيل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن باللَّيل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » [٤] .

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله ﷺ كان يشجعهم على ذلك ، ويختار لهم مَن يعلمهم القرآن ، عن عبادة بن الصامت قال: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتخالطوا » [٥] .

---

(١) الإصابة ، جـ ٢ ص ٢٨
(٢) رواه البخارى ، وفى رواية لمسلم بزيادة : « فقلت : لو علمتُ والله يا رسول الله أنك تسمع لقراءتى لحبَّرته لك تحبيراً » .
(٣) أخرجه النسائى بسند صحيح .
(٤) رواه البخارى ومسلم .
(٥) مناهل العرفان للزرقانى ، جـ ١ ص ٢٣٤.

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخارى بالروايات الثلاث الآنفة الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله فى صدورهم ، وعرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، أما غيرهم من حفظة القرآن - وهم كثر - فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها ، لا سيما وأن الصحابة تفرّقوا فى الأمصار ، وحفظ بعضهم عن بعض ، ويكفى دليلاً على ذلك أن الذين قُتلوا فى بئر معونة من الصحابة كان يُقال لهم القُرّاء ، وكانوا سبعين رجلاً كما فى الصحيح ، قال القرطبى : « قد قُتِلَ يوم اليمامة سبعون من القُرّاء - وقُتِلَ فى عهد النبى ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد » وهذا هو ما فهمه العلماء وأوّلوا به الأحاديث الدالة على حصر الحُفّاظ فى السبعة المذكورين ، قال الماوردى [1] معلقاً على رواية أنس « لم يجمع القرآن غير أربعة » : « لا يلزم من قول أنس : لم يجمعه غيرهم أن يكون الواقع فى نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد وهذا لا يتم إلا إن كان لقى كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع فى عهد النبى ﷺ ، وهذا فى غاية البُعد فى العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما فى علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى » [2] .

والماوردى بهذا ينفى الشُبَه التى توهم قلة عدد الحُفّاظ بأسلوب مقنع ، ويبيّن الاحتمالات الممكنة لصيغة الحصر فى حديث أنس بياناً شافياً .

وقد ذكر أبو عبيد [3] فى كتاب « القراءات » القُرّاء من أصحاب النبى ﷺ

---

(١) هو أبو الحسن علىّ بن حبيب الشافعى ، صاحب كتاب « الأحكام السلطانية » وكتاب « أدب الدنيا والدين » توفى سنة ٤٥٠ هجرية .

(٢) يرد الماوردى بالفقرة الأخيرة على الملاحدة الذين يتمسكون برواية أنس الدالة على الحصر فى أن القرآن غير متواتر ، ونضيف إلى رد الماوردى عليهم أنه بجانب الحفظ كانت الكتابة كما سيأتى ، وانظر « الاتقان » جـ ١ ص ٧٢

(٣) أبو عبيد : هو القاسم بن سلاّم الهروى الأزدى الخزاعى ، من أئمة الحديث واللغة ، صاحب كتاب « الأموال » المشهور ، توفى سنة ٢٢٤ هجرية

فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعداً ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالماً ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة [1] ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة . ومن الأنصار : عبادة بن الصامت . ومعاذاً الذى يُكنّى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد ، وصرّح بأن بعضهم إنما كمّله بعد النبى ﷺ [2] .

وذكر الحافظ الذهبى [3] فى « طبقات القراء » أن هذا العدد من القُرّاء هم الذين عرضوه على النبى ﷺ ، واتصلت بنا أسانيدهم ، وأما مَن جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن فى عهد الرسول ﷺ كانوا جمعاً غفيراً ، فإن الاعتماد على الحفظ فى النقل من خصائص هذه الأمة ، قال ابن الجزرى [4] شيخ القُرّاء فى عصره : « إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

(ب) جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول ﷺ :

اتخذ رسول الله ﷺ كُتّاباً للوحى من أجلاء الصحابة . كعلىّ ، ومعاوية ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها ، حتى تُظاهِر الكتابة فى السطور ، الجمع فى الصدور .

---

(١) العبادلة الأربعة المشهورون بالإفتاء هم : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٧٢

(٣) اسمه محمد بن أحمد بن عثمان من كبار المحدّثين فى القرن الثامن ، توفى سنة ٧٤٨ هجرية .

(٤) هو محمد بن محمد الشهير بابن الجزرى ، صاحب كتاب « النشر فى القراءات العشر » توفى سنة ٨٣٣ هجرية .

كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم ، دون أن يأمرهم النبى ﷺ ، فيخطونه فى العسب ، واللِّخاف ، والكرانيف ، والرقاع، والأقتاب ، وقطع الأديم ، والأكتاف [1] ، عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نُؤلِّف القرآن من الرقاع » [2] .

وهذا يدل على مدى المشقة التى كان يتحملها الصحابة فى كتابة القرآن ، حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل ، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة فى ليالى رمضان ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » [3] .

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم من القرآن حفظاً وكتابة كذلك .

ولم تكن هذه الكتابة فى عهد النبى ﷺ مجتمعة فى مصحف عام ، بل عند هذا ما ليس عند ذاك ، وقد نقل العلماء أن نفراً منهم : علىّ بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود - قد

---

(١) العسب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض ، واللِّخاف : جمع لخفة ، وهى صفائح الحجارة ، والكرانيف : جمع كرنافة ، وهى أصول السعف الغلاظ ، والرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو رق ، والأقتاب : جمع قتب ، وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليُركب عليه ، والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم الذى للبعير أو الشاة ، كانوا إذا جف كتبوا عليه .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك بسند على شرط الشيخين ، نؤلف القرآن : أى نجمعه : لترتيب آياته .

(٣) متفق عليه .

جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ ، وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخراً عن الجميع .

وقُبِضَ رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ فى الصدور ، ومكتوب فى الصحف على نحو ما سبق ، مفرَّق الآيات والسور ، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة فى صحيفة على حدة ، بالأحرف السبعة الواردة [1] ، ولم يُجمع فى مصحف عام ، حيث كان الوحى يتنزل تباعاً فيحفظه القرّاء ، ويكتبه الكَتَبة ، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه فى مصحف واحد ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحى من حين لآخر ، وقد يكون منه الناسخ لشىء نزل من قبل ، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تُكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا فى سورة كذا ، ولو جُمِعَ القرآن كله بين دفتى مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شىء من الوحى قال الزركشى : « وإنما لم يُكتب فى عهد النبى ﷺ مصحف لئلا يُفضى إلى تغييره فى كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ » وبهذا يُفسَّر ما رُوِىَ عن زيد بن ثابت ، قال : « قُبِضَ النبى ﷺ ولم يكن القرآن جُمِعَ فى شىء » أى لم يكن جُمِعَ مرتب الآيات والسور فى مصحف واحد ، قال الخطابى : « إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة [2] فكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق بمشورة عمر » [3] .

ويسمى هذا الجمع فى عهد النبى ﷺ : (أ) حفظاً ، (ب) وكتابة : « الجمع الأول » .

---

(١) سيأتى بيان الأحرف السبعة .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

(٣) انظر الإتقان جـ ١ ص ٥٧

٢ - جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، وواجهته أحداث جسام فى ارتداد جمهرة العرب ، فجهّز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين ، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة تضم عدداً كبيراً من الصحابة القُرّاء ، فاستشهد فى هذه الغزوة سبعون قارئاً من الصحابة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب ، ودخل على أبى بكر رضى الله عنه وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع ، فإن القتل قد استحر [١] يوم اليمامة بالقُرّاء - ويُخشى إن استحر بهم فى المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنسَى ، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ، وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبى بكر لهذا الأمر ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته فى القراءة والكتابة والفهم والعقل ، وشهوده العرضة الأخيرة ، وقصّ عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل ، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة ، وبدأ زيد بن ثابت فى مهمته الشاقة معتمداً على المحفوظ فى صدور القُرّاء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف عند أبى بكر ، حتى إذا توفى سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر ، وظلت عنده حتى مات - ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة .

عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر ابن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أريد أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عمر - قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنتَ تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ،

(١) استحر : اشتد .

فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلّفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسب واللّخاف وصدور الرجال ، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [١] حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » [٢] .

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت ، فكان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ، وقوله فى الحديث : « ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره » لا ينافى هذا ، ولا يعنى أنها ليست متواترة ، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره ، وكان زيد يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك ، لأن زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً ، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم ، ويشهدون بأنها كُتِبَت ، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبى خزيمة الأنصارى .

أخرج ابن أبى داود [٣] من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قدم عمر فقال : مَن كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان » وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَن تلقّاه سماعاً ، مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط ، وأخرج ابن أبى داود أيضاً من طريق هشام بن عروة

(١) التوبة : ١٢٨ (٢) أخرجه البخارى .

(٣) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى ، من كبار حفّاظ الحديث ، له من الكتب : المصاحف ، والمسند ، والسنن ، والتفسير ، والقراءات ، والناسخ والمنسوخ - انظر الأعلام للزركلى ، جـ ٤ ص ٢٢٤

عن أبيه « أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » ورجاله ثقات مع انقطاعه ، قال ابن حجر : « وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب » وقال السخاوى [1] فى « جمال القراء » : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدى رسول الله ﷺ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن » قال أبو شامة : « وكان غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدى النبى ﷺ ، لا من مجرد الحفظ ، ولذلك قال فى آخر سورة التوبة : « لم أجدها مع غيره » أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة » [2] .

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل فى عهد النبى ﷺ ، ولكنه كان مفرّقاً فى الرقاع والأكتاف والعسب . فأمر أبو بكر بجمعه فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من التثبيت مشتملة على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، فكان أبو بكر رضى الله عنه أول مَن جمع القرآن بهذه الصفة فى مصحف ، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة ، كمصحف علىّ ، ومصحف أُبَىّ ، ومصحف ابن مسعود ، فإنها لم تكن على هذا النحو ، ولم تنل حظها من التحرى والدقة ، والجمع والترتيب ، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته ، والإجماع عليها ، بمثل ما نال مصحف أبى بكر ، فهذه الخصائص تميّز بها جمع أبى بكر للقرآن ، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين فى عهد أبى بكر بهذا الجمع ، وعن علىّ قال : « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب الله » .

وهذا الجمع هو المسمى بالجمع الثانى .

---

(١) هو علىّ بن محمد بن عبد الصمد المشهور بالسخاوى ، له منظومة فى القراءات تُعرف بالسخاوية ، توفى سنة ٦٤٣ هجرية .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٥٨

٣ - جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :

اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرّق القُرّاء فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته ، ووجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها ، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف ، وقد يقنع بأنها جميعاً مسندة إلى رسول الله ﷺ ، ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التى لم تدرك الرسول ، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها ، وذلك يؤدى إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه ، ثم إلى اللجاج والتأثيم ، وتلك فتنة لا بد لها من علاج .

فلما كانت غزوة « أرمينية » وغزوة « أذربيجان » من أهل العراق ، كان فيمن غزاهما « حذيفة بن اليمان » فرأى اختلافاً كثيراً فى وجوه القراءة ، وبعض ذلك مشوب باللحن ، مع إلف كل لقراءته ، ووقوفه عندها ، ومماراته مخالفة لغيره ، وتكفير بعضهم الآخر ، حينئذ فزع إلى عثمان رضى الله عنه ، وأخبره بما رأى ، وكان عثمان قد نمى إليه أن شيئاً من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصبية ، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم ، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل ، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التى كانت عند أبى بكر ، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، فأرسلت إليه بتلك الصحف ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصارى ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين ، فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف ، وأن يُكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم .

عن أنس : « أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ،

فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك - فأرسلت بها حفصة إلى عثمان - فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق ، قال زيد : آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) فألحقناها فى سورتها فى المصحف (٢) .

ودلت الآثار على أن الاختلاف فى وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده ، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك ، عن ابن جرير قال : « حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا أيوب ، عن أبى قلابة ، قال : لما كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يُعلّم قراءة الرجل ، والمعلم يُعلّم قراءة الرجل . فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلّمين - قال أيوب : فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان . فقام خطيباً فقال : « أنتم عندى تختلفون فيه وتلحنون ، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً ، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً » قال أبو قلابة : فحدثنى أنس بن مالك قال : كنت فيمن يُملّى عليهم ، قال : فربما اختلفوا فى الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ، ولعله أن يكون غائباً فى بعض البوادى ، فيكتبون ما قبلها و

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) رواه البخارى .

بعدها ، ويدعون موضعها ، حتى يجىء أو يرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار : إنى قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ما عندى ، فامحوا ما عندكم (١) .

وأخرج ابن أشتة (٢) من طريق أيوب عن أبى قلابة مثله ، وذكر ابن حجر فى الفتح أن ابن داود أخرجه فى المصاحف من طريق أبى قلابة .

وعن سويد بن غفلة قال : « قال علىّ : لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصحف إلا عن ملأ منا . قال : ما تقولون فى هذه القراءة ؟ قد بلغنى أن بعضهم يقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، قلنا : فما ترى ؟ قال : أرى أن يُجْمَعَ الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فنعْمَ ما رأيت » (٣) .

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة ، كُتبَت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ليجتمع الناس على قراءة واحدة ، ورد عثمان الصحف إلى حفصة ، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف . واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذى يسمى الإمام . وتسميته بذلك لما جاء فى بعض الروايات السابقة من قوله : « اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً » وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف ، وتلقت الأُمة ذلك بالطاعة ، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأُخرى ، ولا ضير فى ذلك . فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة ، ولو أوجب رسول الله ﷺ على الأمة القراءة بها جميعاً لوجب نقل كل حرف منها نقلاً

(١) انظر الجزء الأول من تفسير الطبرى ، تحقيق وتخريج الأخوين محمد محمد شاكر وأحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف ص ٦١ - ٦٢

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشتة ، من المحققين الثقات ، الذين اشتغلوا بعلوم القرآن ، توفى سنة ٣٦٠ هجرية .

(٣) أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح .

متواتراً تقوم به الحجة ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرُخصة . وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة . وهذا هو كما كان .

قال ابن جرير فيما فعله عثمان : « وجمعهم على مصحف واحد ، وحرف واحد ، وخرق ما عدا المصحف الذى جمعهم عليه ، وعزم على كل مَن كان عنده مصحف « مخالف » المصحف الذى جمعهم عليه ، أن يحرقه [1] ، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرُشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها ، طاعة منها له ، نظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وتعفت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها ، لدثورها وعفو آثارها ، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها ، من غير جحود منها صحتها وصحة شىء منها ، ولكن نظراً منها لأنفسها ولسائر أهل دينها ، فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض مَن ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ . وأمرهم بقراءتها ؟

قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورُخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة ، عند مَن يقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر ، ويزيل الشك من قرأة [2] الأمة ، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم

(١) انظر هذا النص فى تفسير ابن جرير الطبرى جـ ١ ص ٦٤ - ٦٥ ، وفى التعليق ، قال ابن حجر فى الفتح ٩ : ١٨ فى شرح حديث البخارى : « فى رواية الأكثر « أن يخرق » بالخاء المعجمة ، وللمروزى بالمهملة ، ورواه الأصيلى بالوجهين ، والمعجمة أثبت » وخرق الكتاب أو الثوب : شقه ومزقه .

(٢) « من قرأة الأمة » ، القرأة : جمع قارىء .

كانوا فى القراءة بها مخيَّرين ، بعد أن يكون فى نقلة القرآن مَن الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة .

وإذ كان ذلك كذلك ، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع ، تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذى فعلوا من ذلك ، كان هو النظر للإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم ، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه ، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة ، من ذلك » .

* * *

• الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان :

يتبين من النصوص أن جمع أبى بكر يختلف عن جمع عثمان فى الباعث والكيفية .

فالباعث لدى أبى بكر رضى الله عنه لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته ، حين استحر القتل بالقُرَّاء .

والباعث لدى عثمان رضى الله عنه كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، حين شاهد هذا الاختلاف فى الأمصار وخطَّأ بعضهم بعضاً .

وجمع أبى بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرَّقاً فى الرقاع والأكتاف والعسب . وجمعاً له فى مصحف واحد مرتب الآيات والسور . مقتصراً على ما لم تُنسخ تلاوته ، مشتملاً على الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

وجمع عثمان للقرآن كان نسخاً له على حرف واحد من الحروف السبعة ، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد . وحرف واحد يقرأون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى . قال ابن التين وغيره : « الفرق بين جمع أبى بكر وجمع

عثمان ، أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع واحد ، فجمعه فى صحائف ، مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللُّغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعضه ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللُّغات على لغة قريش ، محتجاً بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسَّع فى قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة » وقال الحارث المحاسبى : « المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين مَن شهده من المهاجرين والأنصار ، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أُنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصدِّيق » [1] .

وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة ، وحسم مادة الخلاف ، وحصَّن القرآن من أن يتطرق إليه شىء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان .

وقد اختلف العلماء فى عدد المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق .

(أ) فقيل : كان عددها سبعة . أُرسلت إلى : مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، واليمن ، والبحرين ، والمدينة . قال ابن أبى داود : سمعتُ أبا حاتم السجستانى يقول : كتب سبعة مصاحف ، فأرسل إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً .

(١) انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(ب) وقيل : كان عددها اربعة ، العراقى ، والشامى ، والمصرى ، والمصحف الإمام ، أو الكوفى ، والبصرى ، والشامى ، والمصحف الإمام . قال أبو عمرو الدانى فى المقنع [1] : « أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة : الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحداً عنده » .

(جـ) وقيل : كان عددها خمسة ، وذهب السيوطى إلى أن هذا هو المشهور .

أما الصحف التى رُدَّت إلى حفصة فقد ظلت عندها حتى ماتت . ثم غُسلت غسلاً [2] وقيل أخذها مروان بن الحكم وأحرقها .

والمصاحف التى كتبها عثمان لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم . والذى يُرْوَى عن ابن كثير [3] فى كتابه « فضائل القرآن » أنه رأى واحداً منها بجامع دمشق بالشام ، فى رق يظنه من جلود الإبل ، ويُرْوَى أن هذا المصحف الشامى نُقِلَ إلى إنجلترا بعد أن ظل فى حوزة قياصرة الروس فى دار الكتب فى لينينجراد فترة ، وقيل إنه احترق فى مسجد دمشق سنة ١٣١٠ هجرية .

وجمع عثمان للقرآن هو المسمى بالجمع الثالث ، وكان سنة ٢٥ هجرية .

* * *

(١) هو عثمان بن سعيد ، من أئمة القراء ، له من الكتب : « التيسير فى القراءات السبع » و « المقنع فى رسم القرآن » و « المحكم فى نقط المصاحف » توفى سنة ٤٤٤ هجرية .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٦١

(٣) عماد الدين أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب « تفسير القرآن » ، و« البداية والنهاية فى التاريخ » توفى سنة ٧٧٤ هجرية .

شُبَه مردودة

هناك شُبَه يثيرها أهل الأهواء لتوهين الثقة بالقرآن ، والتشكيك فى دقة جمعه ، ونحن نورد أهمها ونرد عليها :

١ - قالوا : إن الآثار قد دلت على أن القرآن قد سقط منه شىء لم يُكتب فى المصاحف التى بأيدينا اليوم :

(أ) عن عائشة قالت : « سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ فى المسجد فقال : يرحمه الله ، لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا » ، وفى رواية : « أسقطتهن من آية كذا وكذا » ، وفى رواية : « كنت أنسيتها » [١] .

ويجاب عن هذا بأن تذكير الرسول ﷺ بآية أو آيات قد أنسيها أو أسقطها نسياناً لا يشكك فى جمع القرآن ، فإن الرواية التى جاء فيها التعبير بالإسقاط تفسرها الرواية الأخرى : « كنت أنسيتها » وهذا يدل على أن المراد بإسقاطها نسيانها ، كما يدل عليه لفظ « أذكرنى » والنسيان جائز على رسول الله ﷺ فيما لا يخل بالتبليغ ، وكانت هذه الآيات قد حفظها رسول الله ، واستكتبها كُتّاب الوحى ، وحفظها الصحابة فى صدورهم ، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر ، فنسيان الرسول ﷺ لها بعد ذلك لا يؤثر فى دقة جمع القرآن ، وهذا هو غاية ما يدل عليه الحديث . ولذا كانت قراءة هذا الرجل - وهو أحد الحفظة الذين يبلغ عددهم حد التواتر - مذكرة لرسول الله ﷺ : « لقد أذكرنى كذا وكذا آية » .

(ب) وقال تعالى فى سورة الأعلى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [٢] والاستثناء يدل على أن رسول الله ﷺ أنسِىَ بعض الآيات .

---

(١) الحديث فى الصحيحين بألفاظ متقاربة .

(٢) الأعلى : ٦ - ٧

ويُجاب عن ذلك بأن الله تعالى قد وعد رسوله بإقراء القرآن وحفظه ، وأمّنه من النسيان فى قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك ، والله تعالى فاعل مختار ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [١] جاء الاستثناء ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ للدلالة على أن هذا الإخبار بإقراء الرسول القرآن وتأمينه من النسيان ليس خارجاً عن إرادته تعالى ، فإنه سبحانه لا يُعجزه شىء . يقول الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية : « ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تتسع لغيره ، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه ، جاء بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفى النسيان رأساً ، وقالوا : إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه : « أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله » لا يقصد استثناء شىء ، وهو من استعمال القلة فى معنى النفى ، وعلى ذلك جاء الاستثناء ، فى قوله تعالى فى سورة هود : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [٢] أى غير مقطوع ، فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد ، بكرم من الله وسعة جوده ، لا بتحتيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئاً كان يذكره ، فذلك إن صح ، فهو فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أُمِرَ بتبليغها ، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين ، التى جازت على عقول المغفلين ، فلوّثوا بها ما طهّره الله ، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشىء من ذلك » .

---

(١) الأنبياء : ٢٣

(٢) هود : ١٠٨

٢ - وقالوا : إن فى القرآن ما ليس منه ، واستدلوا على ذلك بما رُوِىَ من أن ابن مسعود أنكر أن المعوذتين من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن ما نُقِلَ عن ابن مسعود رضى اللّه عنه لم يصح ، وهو مخالف لإجماع الأمة ، قال النووى فى شرح المهذب : « وأجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن مَن جحد شيئاً منها كفر ، وما نُقِلَ عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » ، وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع »

وعلى فرض صحته ، فالذى يُحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى ﷺ فتوقف فى أمرهما .

وإنكار ابن مسعود لا ينقض إجماع الأمة على أن المعوذتين من القرآن المتواتر .

ومثل هذا يُجاب به على ما قيل من أن مصحف ابن مسعود قد أُسقطت منه الفاتحة ، فإن الفاتحة هى أم القرآن ، ولا تخفى قرآنيتها على أحد .

٣ - ويزعم نفر من غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان حرَّفوا القرآن ، وأسقطوا بعض آياته وسوره ، فحرَّفوا لفظ : ﴿ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (١) والأصل : « أئمة هى أزكى من أئمتكم » ، وأسقطوا من سورة « الأحزاب » آيات فضائل أهل البيت وقد كانت فى طولها مثل سورة « الأنعام » ، وأسقطوا سورة الولاية بتمامها من القرآن .

ويُجاب عن ذلك بأن هذه الأقوال أباطيل لا سند لها ، ودعاوى لا بيِّنة عليها ، والكلام فيها حمق وسفاهة ، وقد تبرأ بعض علماء الشيعة من هذا السخف ،

(١) النحل : ٩٢

والمنقول عن علىّ رضى اللّه عنه الذى يدَّعون التشيع له ، يناقضه ، ويدل على انعقاد الإجماع بتواتر القرآن الذى بين دفتى المصحف ، فقد أُثِرَ عنه أنه قال فى جمع أبى بكر : « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة اللّه على أبى بكر ، هو أول مَن جمع كتاب اللّه » ، وقال فى جمع عثمان : « يا معشر الناس ، اتقُّوا اللّه ، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حرَّاق مصاحف ، فواللّه ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول اللّه ﷺ » ، وقال : « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

فهذا الذى أُثِرَ عن علىّ نفسه يقطع ألسنة أولئك المفترين الذين يزعمون نُصرته نيهرفون بما لا يعرفون تشيعاً له ، وهو منهم براء (١) .

* * *

(١) انظر « مناهل العرفان » جـ ١ ص ٤٦٤

ترتيب الآيات والسور

• ترتيب الآيات :

القرآن سور وآيات منها القصار والطوال ، والآية : هى الجملة من كلام الله المندرجة فى سورة من القرآن ، والسورة : هى الجملة من آيات القرآن ذات المطلع والمقطع . وترتيب الآيات فى القرآن الكريم توقيفى عن رسول الله ﷺ ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك : منهم : الزركشى فى « البرهان » ، وأبو جعفر بن الزبير [1] فى « مناسباته » إذ يقول : « ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف بين المسلمين » وجزم السيوطى بذلك فقال : « الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فى ذلك » فقد كان جبريل يتنزل بالآيات على رسول الله ﷺ . ويرشده إلى موضعها من السورة أو الآيات التى نزلت قبل ، فيأمر الرسول كتبة الوحى بكتابتها فى موضعها ويقول لهم : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يُذكر فيها كذا أو كذا ، أو ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، كما بلغها أصحابه كذلك ، عن عثمان بن أبى العاص قال : « كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَصَ ببصره ثم صوَّبه ، ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [2] ... إلى آخرها » [3] .

ووقف عثمان فى جمع القرآن عند موضع كل آية من سورتها فى القرآن ، ولو كانت منسوخة الحكم . لا يغيرها . وهذا يدل على أن كتابتها بهذا الترتيب توقيفية ، عن ابن الزبير قال : « قلتُ لعثمان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً ﴾ [4] قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى ، كان من النحاة الحفاظ ، توفى سنة ٨٠٧ هجرية .
(٢) النحل : ٩٠ (٣) أخرجه أحمد بإسناد حسن . (٤) البقرة : ٢٤٠

أو تدعها ؟ [1] قال : « يابن أخى ، لا أغيِّر شيئاً من مكانه » [2] .

وجاءت الأحاديث الدالة على فضل آيات من سور بعينها ، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفياً . إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث ، عن أبى الدرداء مرفوعاً : « مَن حفظ عشر آياتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال » وفى لفظ : « مَن قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف ... » [3] كما جاءت الأحاديث الدالة على آية بعينها فى موضعها ، عن عمر قال : « ما سألتُ النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكَلالة ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء » [4] .

وثبتت قراءة رسول الله ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة ، أو فى خطبة الجمعة ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، وصح أنه قرأ « الأعراف » فى المغرب ، وأنه كان يقرأ فى صبح الجمعة : ﴿ الٓمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (السجدة) [5] ، و ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ (الدهر) [6] وكان يقرأ سورة « ق » فى الخطبة ، ويقرأ « الجمعة » و « المنافقون » فى صلاة الجمعة .

وكان جبريل يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل عام مرة فى رمضان ، وعارضه فى العام الأخير من حياته مرتين ، وكان ذلك العرض على الترتيب المعروف الآن .

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو فى المصحف المتداول فى أيدينا توقيفياً ، لا مراء فى ذلك ، قال السيوطى بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة : « تدل قراءته ﷺ لها ، وشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيباً سمعوا النبى ﷺ يقرأ على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » [7] .

* * *

---

(١) أى لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم أنها منسوخة ؟
(٢) أخرجه البخارى . (٣) رواه مسلم . (٤) رواه مسلم .
(٥) أى سورة السجدة . (٦) أى سورة الإنسان . (٧) انظر الإتقان جـ ١ ص ٦١

● ترتيب السور :

اختلف العلماء فى ترتيب السور :

(أ) فقيل : إنه توقيفى ، تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، فكان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتب السور ، كما كان مرتب الآيات على هذا الترتيب الذى لدينا اليوم ، وهو ترتيب مصحف عثمان الذى لم يتنازع أحد من الصحابة فيه مما يدل على عدم المخالفة والإجماع عليه .

ويؤيد هذا الرأى : أن رسول الله ﷺ قرأ بعض السور مرتبة فى صلاته ، روى ابن أبى شيبة : أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع المفصّل فى ركعة ، وروى البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادى » فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها .

ورُوِىَ من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : « سمعتُ ربيعة يسأل : لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة مكية ، وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه به ، ثم قال : فهذا مما ينتهى إليه ولا يُسأل عنه » (١) .

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى ، كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف » (٢) .

(ب) وقيل : إن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة بدليل اختلاف مصاحفهم فى الترتيب .

---

(١) أخرجه ابن أشته فى كتاب « المصاحف » والمراد بالتأليف : الجمع .

(٢) انظر الإتقان جـ ١ ص ٦٢

فمصحف « علىّ » كان مرتباً على النزول ، أوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن والقلم ، ثم المزمل وهكذا ... إلى آخر المكى والمدنى .

وكان أول مصحف ابن مسعود : البقرة ثم النساء ، ثم آل عمران .

وأول مصحف أُبَىّ : الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران .

وقد روى ابن عباس قال : « قلتُ لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما . ولم تكتبوا بينهما سطر : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتموها فى السبع الطوال ، فقال : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أُنزل عليه شىء دعا بعض مَن يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ووضعتها فى السبع الطوال » (١) .

(جـ) وقيل : إن بعض السور ترتيبه توقيفى وبعضها باجتهاد الصحابة : حيث ورد ما يدل على ترتيب بعض السور فى عهد النبوّة . فقد ورد ما يدل على ترتيب السبع الطوال والحواميم والمفصّل فى حياته عليه الصلاة والسلام .

رُوِىَ أن رسول الله ﷺ قال : « اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » (٢) .

ورُوِىَ « أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و « المعوذتين » (٣) .

وقال ابن حجر : « ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً » واستدل على ذلك بحديث حذيفة الثقفى حيث جاء فيه : « فقال

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى .

لنا رسول الله ﷺ : « طرأ علىّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه » ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تُحَزِّبون القرآن ؟ قالوا : نُحَزِّبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصّل من « ق » حتى نختم [1] ، قال ابن حجر : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : ويحتمل أن الذى كان مرتباً حينئذ حزب المفصّل خاصة بخلاف ما عداه » .

وإذا ناقشنا هذه الآراء الثلاثة يتبين لنا :

أن الرأى الثانى الذى يرى أن ترتيب السور باجتهاد الصحابة لم يستند إلى دليل يُعتمد عليه .

فاجتهاد بعض الصحابة فى ترتيب مصاحفهم الخاصة كان اختياراً منهم قبل أن يُجمع القرآن جمعاً مرتباً ، فلما جُمِعَ فى عهد عثمان بترتيب الآيات والسور على حرف واحد واجتمعت الأمة على ذلك تركوا مصاحفهم ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لتمسكوا بها .

وحديث سورتى : الأنفال والتوبة الذى رُوِىَ عن ابن عباس يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى يذكره البخارى فى الضعفاء ، وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور . كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه . ولذا قال فيه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عليه بمسند الإمام أحمد : « إنه حديث لا أصل له » .

وغاية ما فيه أنه يدل على عدم الترتيب بين هاتين السورتين فقط [2] .

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود ، وانظر « الإتقان » جـ ١ ص ٦٣

(٢) وحُكِىَ أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود ، وفى المستدرك للحاكم أن على بن أبى طالب سُئل : لِمَ لَمْ تُكتب فى براءة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؟ قال : لأنها أمان . وبراءة نزلت بالسيف .

أما الرأى الثالث الذى يرى أن بعض السور ترتيبها ترقيفى ، وبعضها ترتيبه اجتهادى . فإن أدلته ترتكز على ذكر النصوص الدالة على ما هو توقيفى . أما القسم الاجتهادى فإنه لا يستند إلى دليل يدل على أن ترتيبه اجتهادى . إذ أن ثبوت التوقيفى بأدلته لا يعنى أن ما سواه اجتهادى . مع أنه قليل جداً .

وبهذا يترجح أن ترتيب السور توقيفى كترتيب الآيات ، قال أبو بكر بن الأنبارى : « أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرّقه فى بضع وعشرين ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبِر ، ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى ﷺ . فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » وقال الكرمانى فى « البرهان » : « ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه . وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين . وكان آخر الآيات نزولاً : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [1] فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدَّيْن » [2] .

ومال السيوطى إلى ما ذهب إليه البيهقى قال : « كان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان » .

* * *

سور القرآن وآياته

سور القرآن أقسام أربعة : ١ - الطوال . ٢ - والمئين . ٣ - والمثانى . ٤ - والمفصل .. نوجز أرجح الآراء فيها .

١ - فالطوال : سبع : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة ، قيل : هى الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة . وقيل : هى يونس .

---

(١) البقرة : ٢٨١

(٢) انظر « الإتقان » جـ ١ ص ٦٢.

٢ – والمئون : التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

٣ – والمثانى : هى التى تليها فى عدد الآيات ، سميت بذلك لأنها تُثَنَّى فى القراءة وتُكَرَّر أكثر من الطوال والمئين .

٤ – والمفصَّل : قيل : من أول سورة « ق » ، وقيل : من أول « الحجرات » ، وقيل غير ذلك – وأقسامه ثلاثة – طواله ، وأوساطه ، وقصاره .

فطواله : من « ق » أو « الحجرات إلى « عم » أو « البروج » ، وأوساطه : من « عم » أو « البروج » إلى « الضحى » أو إلى « لم يكن » ، وقصاره : من « الضحى » أو « لم يكن » إلى آخر القرآن . على خلاف فى ذلك .

وتسميته بالمفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

وتعداد السور : مائة وأربع عشرة سورة ، وقيل : وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة .

أما تعداد الآيات فستة آلاف ومائتا آية ، واختلفوا فيما زاد عن ذلك .

وأطول الآيات آية الدَّيْن ، وأطول السور سورة البقرة .

وهذه التجزئة تُيَسِّر على الناس الحفظ ، وتحملهم على الدراسة ، وتُشعر القارىء لسورة من السور بأنه قد أخذ قسطاً وافياً وطائفة مستقلة من أصول دينه وأحكام شريعته .

* * *

الرسمُ العثمانى

سبق الحديث عن جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه . وقد اتبع زيد ابن ثابت والثلاثة القرشيون معه طريقة خاصة فى الكتابة ارتضاها لهم عثمان ، ويسمى العلماء هذه الطريقة « بالرسم العثمانى للمصحف » نسبة إليه ، واختلف العلماء فى حكمه .

١ – فذهب بعضهم إلى أن هذا الرسم العثمانى للقرآن توقيفي يجب الأخذ به فى كتابة القرآن ، وبالغوا فى تقديسه ، ونسبوا التوقيف فيه إلى النبى ﷺ ، فذكروا أنه قال لمعاوية – أحد كتبة الوحى : « ألق الدواة ، وحَرِّف القلم ، وانصب الياء ، وفرِّق السين ، ولا تُعَوِّر الميم ، وحسِّن الله ، ومُدَّ الرحمن ، وجَوِّد الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك » ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباغ أنه قال له : « ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبى وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خَصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز » .

والتمسوا لذلك الرسم أسراراً تجعل للرسم العثمانى دلالة على معان خفية دقيقة ، كزيادة « الياء » فى كتابة كلمة « أيد » من قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ (١) إذ كتبت هكذا « بأييد » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السماء . وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة ، وهى : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (٢) .

وهذا الرأى لم يرد فيه شىء عن رسول الله ﷺ حتى يكون الرسم توقيفياً ، وإنما اصطلح الكتبة على هذا الرسم فى زمن عثمان برضا منه ، وجعل لهم ضابطاً لذلك بقوله للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم » وحين اختلفوا فى كتابة « التابوت » فقال زيد : « التابوه » وقال النفر القرشيون : « التابوت » وترافعوا إلى عثمان قال : « اكتبوا « التابوت » فإنما أُنْزِلَ القرآن على لسان قريش » .

---

(١) الذريات : ٤٧

(٢) انظر « مناهل العرفان » للزرقانى جـ ٢ ص ٣٧٠ وما بعدها .

٢ – وذهب كثير من العلماء إلى أن الرسم العثمانى ليس توقيفياً عن النبى ﷺ ، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول ، فيجب التزامه والأخذ به ، ولا تجوز مخالفته . قال أشهب : « سُئِلَ مالك : هل يُكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ قال : لا ، إلا على الكتبة الأولى » رواه أبو عمرو الدانى فى « المقنع » ثم قال : « ولا مخالف له من علماء الأمة » ، وقال فى موضع آخر : سُئِلَ مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن تُغَيَّر من المصحف إذا وُجِدا فيه كذلك قال : لا ، قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو « أولوا » وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك » (١) .

٣ – وذهب جماعة إلى أن الرسم العثمانى اصطلاحى ، ولا مانع من مخالفته إذا اصطلح الناس على رسم خاص للإملاء وأصبح شائعاً بينهم . قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه « الانتصار » : « وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً . أو لم يأخذ على كُتّاب القرآن وخُطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يُدْرَك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحَدٍّ محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السُنّة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السُنّة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبيّن لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم مَن كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم مَن كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يُكتب بالحروف الكوفية والخط

(١) انظر « الإتقان » جـ ٢ ص ١٦٧ ، و « البرهان » للزركشى جـ ١ ص ٣٧٩

الأول ، وأن يُجعل الكلام على صورة الكاف ، وأن تُعَوَّج الألفات ، وأن يُكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يُكتب بالخطوط والهجاء المحدَثة وجاز أن يُكتب بين ذلك ، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مخالفة مستغايرة الصورة ، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى . من غير تأثيم ولا تناكر ، عُلِمَ أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أُخِذَ عليهم فى القراءة ، والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز . فكل رسم دال على الكلمة مقيِّد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت .. وبالجملة فكل مَن ادّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنّى له ذلك » .

وإنطلاقاً من هذا الرأى يدعو بعض الناس اليوم إلى كتابة القرآن الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة المصطلح عليها ، حتى تسهل قراءته على القارئين من الطلاب والدارسين ، ولا يشعر الطالب أثناء قراءته للقرآن باختلاف رسمه عن الرسم الإملائى الاصطلاحى الذى يدرسه .

والذى أراه أن الرأى الثانى هو الرأى الراجح ، وأنه يجب كتابة القرآن بالرسم العثمانى المعهود فى المصحف .

فهو الرسم الاصطلاحى الذى توارثته الأمة منذ عهد عثمان رضى الله عنه ، والحفاظ عليه ضمان قوى لصيانة القرآن من التغيير والتبديل فى حروفه ، ولو أُبيحت كتابته بالاصطلاح الإملائى لكل عصر لأدى هذا إلى تغيير خط المصحف من عصر لآخر ، بل إن قواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وجهات النظر فى العصر الواحد ، وتتفاوت فى بعض الكلمات من بلد لآخر .

واختلاف الخطوط الذى يذكره القاضى أبو بكر الباقلانى شىء والرسم الإملائى شىء آخر ، فاختلاف الخط تغير فى صورة الحرف لا فى رسم الكلمة .

وحجة تيسير القراءة على الطلاب والدراسين بانتفاء التعارض بين رسم القرآن والرسم الإملائى الاصطلاحى لا تكون مبرراً للتغيير الذى يؤدى إلى التهاون فى تحرى الدقة بكتابة القرآن .

والذى يعتاد القراءة فى المصحف يألف ذلك ويفهم الفوارق الإملائية بالإشارات الموضوعة على الكلمات ، والذين يمارسون هذا فى الحياة التعليمية أو مع أبنائهم يدركون أن الصعوبة التى توجد فى القراءة بالمصحف أول الأمر تتحوّل بالمران بعد فترة قصيرة إلى سهولة تامة .

قال البيهقى فى شُعَب الإيمان : « مَن يكتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يُغَيِّر مما كتبوه شيئاً ، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم » (١) .

* * *

تحسين الرسم العثمانى

كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل ، اعتماداً على السليقة العربية السليمة التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات ولا إلى الإعجام بالنقط ، فلما تطرّق إلى اللّسان العربى الفساد بكثرة الاختلاط أحس أولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصحف بالشكل والنقط وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة .

واختلف العلماء فى أول جهد بُذِلَ فى ذلك السبيل .

فيرى كثير منهم أن أول مَن فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى الذى يُنسب إليه وضع ضوابط للعربية بأمر علىّ بن أبى طالب ، ويُرْوَى فى ذلك أنه سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) فقرأها بجر

(١) انظر « الإتقان » جـ ٢ ص ١٦٧ .

(٢) التوبة : ٣

اللام من كلمة « رسوله » فأفزع هذا اللّحن أبا الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، ثم ذهب إلى زياد والى البصرة وقال له : قد أجبتك إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ فى الجواب حتى راعه هذا الحادث ، وهنا جد جده ، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين .

ويذكر السيوطى فى « الإتقان » أن أبا الأسود الدؤلى أول مَن فعل ذلك بأمر عبد الملك بن مروان لا بأمر زياد ، حيث ظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان بضعاً وأربعين سنة . حتى خلافة عبد الملك حين كثرت التصحيفات وانتشرت فى العراق ففكر الولاة فى النقط والتشكيل .

وهناك روايات أخرى تنسب هذا الفعل إلى آخرين . منهم : الحسن البصرى ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم الليثى ، وأبو الأسود الدؤلى هو الذى اشتهر عنه ذلك ، وربما كان للآخرين المذكورين جهود أخرى بُذِلت فى تحسين الرسم وتيسيره .

وقد تدرج تحسين رسم المصحف ، فكان الشكل فى الصدر الأول نقطاً ، فالفتحة نقطة على أول الحرف ، والضمة على آخره ، والكسرة تحت أوله .

ثم كان الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف ، وهو الذى أخرجه الخليل ، فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف ، والكسر كذلك تحته ، والضم واو صغرى فوقه ، والتنوين زيادة مثلها ، وتُكتب الألف المحذوفة والمبدّل منها فى محلها حمراء ، والهمزة المحذوفة تُكتب همزة بلا حرف حمراء أيضاً ، وعلى النون والتنوين قبل الباء علامة الإقلاب حمراء ، وقبل الحلق سكون ، وتعرى عند الإدغام والإخفاء ، ويسكن كل مسكن ، ويعرى المدغم ويشدّد ما بعده إلا الطاء قبل التاء فيكتب عليها السكون نحو « فرطت » (١) .

(١) انظر « الإتقان » جـ ٢ ص ١٧١ .

ثم كان القرن الثالث الهجرى فجاد رسم المصحف وتحسن ، وتنافس الناس فى اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميّزة ، فجعلوا للحرف المشدّد علامة كالقوس ، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها . على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة .

ثم تدرج الناس بعد ذلك فى وضع أسماء السور وعدد الآيات ، والرموز التى تشير إلى رؤوس الآى ، وعلامات الوقف اللازم (م) والممنوع (لا) والجائز جوازاً مستوى الطرفين (ج) والجائز مع كون الوصل أولى (صلى) والجائز مع كون الوقف أولى (قلى) وتعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف على الآخر (∴ ∴) والتجزئة ، والتحزيب ، إلى غير ذلك من وجوه التحسين .

وكان العلماء فى بداية الأمر يكرهون ذلك خوفاً من وقوع زيادة فى القرآن مستندين إلى قول ابن مسعود : « جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشىء » ، ويفرّق بعضهم بين النقط الجائز . والأعشار والفواتح التى لا تجوز . قال الحليمى : « تُكره كتابة الأعشار والأخماس ، وأسماء السور وعدد الآيات فيه لقول ابن مسعود : « جرّدوا القرآن » وأما النقط فيجوز ، لأنه ليس له صورة فيتَوَهّم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً . وإنما هى دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها » .

ثم انتهى الأمر فى ذلك إلى الإباحة والاستحباب ، أخرج ابن أبى داود عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : « لا بأس بنقط المصاحف » ، وأخرج عن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن : أنه قال : « لا بأس بشكله » ، وقال النووى : « نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللّحن والتحريف » [1] .

وقد وصلت العناية بتحسين رسم المصحف اليوم ذروتها فى الخط العربى .

* * *

(١) انظر « الإتقان » جـ ٢ ص ١٧١

الفواصل ورؤوس الآى

تميز القرآن الكريم بمنهج فريد فى فواصله ورؤوس آياته ، ونعنى بالفاصلة : الكلام المنفصل مما بعده ، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون ، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابى ، سميت بذلك لأن الكلام ينفصل عندها .

ونعنى برأس الآية : نهايتها التى توضع بعدها علامة الفصل بين آية وآية ، ولهذا قالوا [1] : « كل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين » ، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها .

ومثل هذا قد يُسمى فى كلام الناس سجعاً على النحو المعروف فى علم البديع ، ولكن كثيراً من العلماء [2] لا يطلق هذا الوصف على القرآن الكريم سُمُوّاً به عن كلام الأدباء ، وعبارات الأنبياء ، وأسلوب البلغاء وفرّقوا بين الفواصل والسجع ، بأن الفواصل فى القرآن : هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة لذاتها .

أما السجع : فهو الذى يُقصد فى نفسه ثم يحيل المعنى عليه ، لأنه : موالاة الكلام على وزن واحد . ورد القاضى أبو بكر الباقلانى على مَن أثبت السجع فى القرآن فقال : « وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يُقال : هو سجع مُعْجِز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف ؟ والسجع مما كانت كهّان العرب تألفه ، وتنفيه من القرآن أجدر بأن يكون حُجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تخالف النبوّات بخلاف الشعر . وما توهموا أنه سجع

(١) انظر « البرهان » للزركشى جـ ١ ص ٥٣

(٢) على رأس هؤلاء « الرمانى » فى كتاب « إعجاز القرآن » والقاضى أبو بكر الباقلانى فى كتاب « إعجاز القرآن » كذلك .

باطل [1] ، لأن مجيئه على صورته لا يقتضى كونه هو ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى بالسجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى معنى السجع من القرآن ، لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى ، وفرق بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ » [2] .

والذى أراه أنه إذا كان المراد بالسجع مراعاة موالاة الكلام على وزن واحد دون مراعاة المعنى فإن هذا تكلف ممقوت فى كلام الناس فضلاً عن كلام الله . أما إذا روعيت المعانى وجاء الاتفاق فى الوزن تابعاً لها دون تكلف فهذا ضرب من ضروب البلاغة ، قد يأتى فى القرآن كما يأتى فى غيره . وإذا سمينا هذا فى القرآن بالفواصل دون السجع فذلك لتلافى إطلاق السجع على القرآن بالمعنى الأول .

والفواصل فى القرآن الكريم أنواع :

(أ) فمنها الفواصل المتماثلة كقوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [5] .

(ب) ومنها الفواصل المتقاربة فى الحروف ، كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [6] للتقارب بين الميم والنون فى المقطع ، وقوله :

(١) أقوى ما استدل به الذين يثبتون السجع فى القرآن ان موسى أفضل من هارون ، ولما كان السجع بالألف اللينة قيل فى موضع : ﴿ قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (طه : ٧٠) ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الشعراء : ٤٨) ، وأجيب بأن التقديم والتأخير لإعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً ، وليس للسجع .

(٢) البرهان ، للزركشى جـ ١ ص ٥٨ .
(٣) الطور : ١ - ٤
(٤) الفجر : ١ - ٤
(٥) التكوير : ١٥ - ١٨
(٦) الفاتحة : ٣ - ٤

﴿ ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [1] بتقارب مقطعى الدال والباء [2] .

(جـ) ومنها المتوازى : وهو أن تتفق الكلمتان فى الوزن وحروف السجع ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ [3] .

(د) ومنها المتوازن ، وهو أن يراعى فى مقاطع الكلام الوزن فقط كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [4] .

وقد يراعى فى الفواصل زيادة حرف كقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [5] بإلحاق ألف ، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف ، فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع . وتناسب نهايات الفواصل ، أو حذف حرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [6] بحذف الياء ، لأن مقاطع الفواصل السابقة واللاحقة بالراء ، أو تأخير ما حقه التقديم لنكتة بلاغية أخرى كتشويق النفس إلى الفاعل فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [7] لأن الأصل فى الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويتأخر المفعول ، لكن أخّر الفاعل هنا وهو « موسى » للنكتة البلاغية السابقة على رعاية الفاصلة .

* * *

(١) سورة ق : ١ - ٢
(٢) هذا لا يسمى سجعاً عند القائلين بإطلاق السجع فى القرآن ، لأن السجع ما تماثلت حروفه .
(٣) الغاشية : ١٣ - ١٤
(٤) الغاشية : ١٥ - ١٦
(٥) الأحزاب : ١٠
(٦) الفجر : ٤
(٧) طه : ٦٧

وقد فصّل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بـ « قل » لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (١) وإلا شمله .

وما ورد فى الخطاب مضافاً إلى الناس أو المؤمنين كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (٣) .

فالمختار فى الأول : أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى .

والمختار فى الثانى : أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده .

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير . وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن فى جملته . وقد يأتى ذكرهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً . وهذا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ (٤) .

* * *

(١) الأعراف : ١٥٨
(٢) الحجرات : ١٣
(٣) المائدة : ٩٠
(٤) النساء : ١٢٤

١٤
الناسخ والمنسوخ (١)

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس فى العقيدة والعبادة والمعاملة . وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعاً إليها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها ، وما يلائم قوماً فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر ، ومسلك الدعوة فى طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء ، فحكمة التشريع فى هذه غيرها فى تلك ، ولا شك أن المشرِّع سبحانه وتعالى يسع كل شىء رحمة وعلماً ، ولله الأمر والنهى ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (٣) فلا غرابة فى أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر .

تعريف النسخ وشروطه

والنسخ لغة : يُطلق بمعنى الإزالة ، ومنه يقال : نسخت الشمس الظل : أى أزالته . ونسخت الريح أثر المشى - ويُطلق بمعنى نقل الشىء من موضع إلى موضع ، ومنه نسختُ الكتاب : إذا نقلتَ ما فيه . وفى القرآن : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف .

(١) أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون : منهم أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو داود السجستانى ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنبارى ، ومكى ، وابن العربى ، وآخرون ، انظر الإتقان جـ ٢ ص ٢٠ . ومن المعاصرين : الدكتور مصطفى زيد « النسخ فى القرآن » .
(٢) الأنبياء : ٢٥
(٣) الأنبياء : ٢٣
(٤) الجاثية : ٢٩

والنسخ فى الاصطلاح : رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى - فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية ، وخرج بقولنا : « بخطاب شرعى » رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس .

ويُطلق الناسخ على الله تعالى كقوله : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ (١) ، وعلى الآية وما يُعرف به النسخ ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر .

والمنسوخ هو الحكم المرتفع ، فآية المواريث مثلاً أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين كما سيأتى ، ومقتضى ما سبق أنه يُشترط فى شروط النسخ :

١ - أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً .

٢ - أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابا شرعياً متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه .

٣ - وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين . وإلا فالحكم ينتهى بانتهاء وقته ولا يُعَد هذا نسخاً . قال « مكى » (٢) :

« ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله فى البقرة : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) مُحْكَم غير منسوخ ، لأنه مؤجل بأجل ، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه .

* * *

(١) البقرة : ١٠٦

(٢) هو مكى بن أبى طالب حموش بن محمد بن مختار القيسى المقرىء يكنى أبا محمد ، وأصله من القيروان ، كثير التأليف فى علوم القرآن والعربية ، له كتاب فى « الناسخ والمنسوخ » سكن قرطبة ، ورحل إلى مصر مرتين ، توفى سنة ٤٣٧ هجرية .

(٣) البقرة : ١٠٩

ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يُعلم أن النسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهى - سواء أكانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى ، على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التى ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، أو الآداب الخُلقية ، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول . وهى متفقة فيها ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ (٣) .

وقال فى القصاص : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٤) .

وقال فى الجهاد : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (٥) .

وفى الأخلاق : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (٦) .

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذى ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد .

* * *

ما به يُعرف النسخ وأهميته

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام ، ولذلك وردت آثار كثيرة فى الحث على معرفته ، فقد رُوِىَ أن علياً رضى الله عنه مَرَّ على قاض فقال له : أتعرف

(١) الشورى : ١٣ (٢) البقرة : ١٨٣ (٣) الحج : ٢٧
(٤) المائدة : ٤٥ (٥) آل عمران : ١٤٦ (٦) لقمان : ١٨

الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، فقال : هلكتَ وأهلكت . وعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) قال : « ناسخه ومنسوخه ومُحْكَمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، وحرامه وحلاله » (٢) .

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق :

١ – النقل الصريح عن النبي ﷺ أو عن صحابي كحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » (رواه الحاكم) . وقول أنس في قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتي : « ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفِع » (٣) .

٢ – إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ .

٣ – معرفة المتقدم من المتأخر في التاريخ .

ولا يُعتمد في النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض بين الأدلة ظاهراً ، أو تأخر إسلام أحد الراويين .

* * *

الآراء في النسخ وأدلة ثبوته

والناس في النسخ على أربعة أقسام :

١ – اليهود : وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم في زعمهم البَدَاء ، وهو الظهور بعد الخفاء ، وهم يعنون بذلك : أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة ، وهذا عبث محال على الله ، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل ، وهذا يستلزم البَدَاء وسبق الجهل ، وهو محال على الله تعالى .

(١) البقرة : ٢٦٩

(٢) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٣) هم بعث من أصحاب رسول الله بعثهم إلى أهل نجد ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم من عصية ورعل وذكوان – وأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم .

واستدلالهم هذا فاسد ، لأن كُلاًّ من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى من قبل ، فلم يتجدد علمه بها . وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق في ملكه .

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها . وجاء في نصوص التوراة النسخ ، كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حِلّه ، قال تعالى في إخباره عنهم : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ (٢) ... الآية .

وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج من الأخت . وقد حرَّم الله ذلك على موسى ، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا مَن عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم .

٢ – الروافض : وهؤلاء غلوا في إثبات النسخ وتوسّعوا فيه ، وأجازوا البَدَاء على الله تعالى ، فهم مع اليهود على طرفي نقيض ، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى عليّ رضي الله عنه زوراً وبهتاناً ، وبقوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (٣) على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات .

وذلك إغراق في الضلال . وتحريف للقرآن ؛ فإن معنى الآية : ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته ، وكل من المحو والإثبات موجود في كثير من الحالات ، كمحو السيئات بالحسنات : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٤) ، ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم . ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء ، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه .

(١) آل عمران : ٩٣ — (٢) الأنعام : ١٤٦

(٣) الرعد : ٣٩ — (٤) هود : ١١٤

٣ - أبو مسلم الأصفهانى [١] : وهو يجوِّز النسخ عقلاً ويمنع وقوعه شرعاً ، وقيل يمنعه فى القرآن خاصة محتجاً بقوله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [٢] على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً . ويحمل آيات النسخ على التخصيص .

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتى بعده ما يبطله .

٤ - وجمهور العلماء : على جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً لأدلة :

١ - لأن أفعال الله لا تُعَلَّل بالأغراض ، فله أن يأمر بالشىء فى وقت وينسخه بالنهى عنه فى وقت ، وهو أعلم بمصالح العباد .

٢ - ولأن نصوص الكتاب والسُنَّة دالة على جواز النسخ ووقوعه :

(أ) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [٣] .

وقال : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [٤] .

(ب) وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال عمر رضى الله عنه : أقرؤنا أُبَىّ ، وأقضانا ، وإنا لندع من قول أُبَىّ ، وذاك أن أُبيّاً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله عز وجل :﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ .

* * *

(١) هو محمد بن بحر ، المشهور بأبى مسلم الأصفهانى ، معتزلى ، من كبار المفسرين . أهم كتبه : « جامع التأويل فى التفسير » ، توفى سنة ٣٢٢ هجرية .

(٢) فصلت : ٤٢ (٣) النحل : ١٠١ (٤) البقرة : ١٠٦

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحول مثلاً نُسِخَت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً ، كما سيأتى فى الأمثلة .

القسم الثانى : نسخ القرآن بالسُنَّة : وتحت هذا نوعان :

(أ) نسخ القرآن بالسُنَّة الآحادية . والجمهور على عدم جوازه . لأن القرآن متواتر يفيد اليقين ، والآحادى مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون .

(ب) ونسخ القرآن بالسُنَّة المتواترة . وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، لأن الكل وحى . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [١] .

وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [٢] والنسخ نوع من البيان - ومنعه الشافعى وأهل الظاهر وأحمد فى الرواية الأخرى ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [٣] والسُنَّة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

القسم الثالث : نسخ السُنَّة بالقرآن ، ويجيزه الجمهور ، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسُنَّة ، وليس فى القرآن ما يدل عليه ، وقد نُسِخَ بالقرآن فى قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [٤] ووجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتاً بالسُنَّة ونُسِخ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [٥]

(١) النجم : ٣ - ٤ (٢) النحل : ٤٤

(٣) البقرة : ١٠٦ (٤) البقرة : ١٤٤

(٥) أخرج البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء فلما فُرِض رمضان كان مَن شاء صام ومَن شاء أفطر » - (والآية من سورة البقرة : ١٨٥) .

ومنع هذا القسم الشافعى فى إحدى روايتيه ، وقال : « وحيث وقع بالسُنّة فمعها قرآن ، أو بالقرآن فمعه سُنّة عاضدة تُبيّن توافق الكتاب والسُنّة » (١) .

القسم الرابع : نسخ السُنّة بالسُنّة ، وتحت هذا أربعة أنواع :

١ - نسخ متواترة بمتواترة ، ٢ - ونسخ آحاد بآحاد ، ٣ - ونسخ آحاد بمتواترة ، ٤ - ونسخ متواترة بآحاد - والثلاثة الأولى جائزة - أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد فى نسخ القرآن بالسُنّة الآحادية ، والجمهور على عدم جـــوازه .

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه .

* * *

أنواع النسخ فى القرآن

والنسخ فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نسخ التلاوة والحكم معاً ، ومثاله : ما رواه مسلم وغيره عن عائشة قالت : « كان فيما أُنزِلَ : عشر رضعات معلومات يُحَرِّمن ، فنسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يُقرأ من القرآن » ، وقولها : « وهن مما يُقرأ من القرآن » ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك ، فإنه غير موجود فى المصحف العثمانى . وأُجيب بأن المراد : قارَبَ الوفاة (٢) .

والأظهر أن التلاوة نُسِخَت ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فتوفى وبعض الناس يقرؤها .

وحكى القاضى أبو بكر فى « الانتصار » عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها تفيد القطع ، ولكنها ظنية .

(١) انظر الإتقان جـ ٢ ص ٢١

(٢) رواه البخارى تعليقاً عن عمر .

ويُجاب على ذلك بأن ثبوت النسخ شىء ، وثبوت نزول القرآن شىء آخر ، فثبوت النسخ يكفى فيه الدليل الظنى بخبر الآحاد ، أما ثبوت نزول القرآن فهو الذى يُشترط فيه الدليل القطعى بالخبر المتواتر ، والذى معنا ثبوت النسخ لا ثبوت القرآن فيكفى فيه أخبار الآحاد . ولو قيل إن هذه القراءة لم تثبت بالتواتر لصح ذلك .

النوع الثانى : نسخ الحكم وبقاء التلاوة ، ومثاله : نسخ حكم آية العِدّة بالحول مع بقاء تلاوتها - وهذا النوع هو الذى أُلفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة . والتحقيق أنها قليلة ، كما بيّن ذلك القاضى أبو بكر بن العربى (١) .

وقد يقال : ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟

والجواب من وجهين ..

أحدهما : أن القرآن كما يُتلى ليُعرف الحكم منه ، والعمل به ، فإنه يُتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيُثاب عليه ، فتُرِكَت التلاوة لهذه الحكمة .

وثانيهما : أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأُبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة فى رفع المشقة .

وأما حكمة النسخ قبل العمل ، كالصدقة عند النجوى ، فيُثاب على الإيمان به ، وعلى نية طاعة الأمر .

النوع الثالث : نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، وقد ذكروا له أمثلة كثيرة ، منها آية الرجم : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » ومنها ما رُوِىَ فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قُتِلوا وقَنَتَ الرسول يدعو على قاتليهم ، قال أنس : ونزل فيهم

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافرى ، أحد فقهاء أشبيلية وعلمائها ، رحل إلى المشرق ، إلى المغرب ، وتوفى سنة ٥٤٤ هجرية .

قرآن قرأناه حتى رُفِعَ : « أن بَلِّغوا عنا قومنا أنّا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نُسخَت تلاوته – وبعض أهل العلم يُنكر هذا النوع من النسخ . لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد ، قال ابن الحصّار : « إنما يُرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ ، أو عن صحابى يقول : آية كذا نسخت كذا ، قال : وقد يُحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليُعرف المتقدم والمتأخر ، قال : ولا يُعتمد فى النسخ على قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صريح ، ولا معارضة بيِّنة ، لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرَّر فى عهده ﷺ . والمعتمَد فيه النقل والتاريخ دون الرأى والاجتهاد ، قال : والناس فى هذا بين طرفى نقيض ، فمن قائل : لا يُقبل فى النسخ أخبار الآحاد العدول ، ومن متساهل يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد ، والصواب خلاف قولهما » [1] .

وقد يقال : إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان ، لأن الآية دليل على الحكم . فإذا نُسِخَت الآية نُسِخَ حكمها . وإلا وقع الناس فى لَبْس .

ويُجاب عن ذلك بأن هذا التلازم يسلم لو لم ينصب الشارع دليلاً على نسخ التلاوة ، وعلى إبقاء الحكم ، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها ، وعلى إبقاء الحكم واستمراره فإن التلازم يكون باطلاً ، وينتفى اللَّبْس بهذا الدليل الشرعى الذى يدل على نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

* * *

حكمة النسخ

١ – مراعاة مصالح العباد .

٢ – تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس .

٣ – ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه .

(١) انظر الإتقان ، جـ ١ ص ٢٤

٤ – إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويُسر .

* * *

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل – والنسخ إلى بدل : إما إلى بدل أخف ، وإما إلى بدل مماثل ، وإما إلى بدل أثقل :

١ – فالنسخ إلى غير بدل : كنسخ الصدقة بين يدى نجوى رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ [1] ، نُسِخَت بقوله : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [2] .

وأنكر بعض المعتزلة والظاهرية ذلك ، وقالوا : إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعاً ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [3] حيث أفادت الآية أنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر خير منه مثله .

ويُجاب عن ذلك : بأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإن هذا يكون بمقتضى حكمته ، رعاية لمصلحة عباده ، فيكون عدم الحكم خيراً من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس ، ويصح حينئذ أن يُقال : إن الله نسخ حكم الآية السابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيراً للناس .

٢ – والنسخ إلى بدل أخف : يمثلون له بقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [4] ... الآية – فهى ناسخة لقوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [5] لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه

(١) المجادلة : ١٢ (٢) المجادلة : ١٣ (٣) البقرة : ١٠٦
(٤) البقرة : ١٨٧ (٥) البقرة : ١٨٣

السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلّوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا ذلك ، فقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : أنزلت : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ كتب عليهم اذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ، وروى مثله أحمد والحاكم وغيرهما ، وفيه : « فأنزل الله عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ... الآية » .

٣ – النسخ إلى بدل مماثل : كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة فى قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (١) .

٤ – والنسخ إلى بدل أثقل : كنسخ الحبس فى البيوت فى قوله : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ (٢) ... الآية ، بالجلد فى قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ (٣) ... الآية .

أو الرجم فى قوله : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » .. (٤) .

* * *

شُبَه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة ، إلا أن العلماء فى هذا :

١ – منهم المكثر الذى اشتبه عليه الأمر فأدخل فى النسخ ما ليس منه .

٢ – ومنهم المتحرى الذى يعتمد على النقل الصحيح فى النسخ .

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها :

(١) البقرة : ١٤٤ (٢) النساء : ١٥ (٣) النور : ٢

(٤) اعترض بعض العلماء على هذا النوع محتجين بقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ، وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ (النساء : ٢٨) . ويُجاب عن ذلك بأن البدل إلى أثقل يكون ميسراً على المكلفين دون مشقة أو إرهاق مع ما فيه من زيادة النفع وعظيم الثواب ، وثقله وصف له بالنسبة إلى ما قبله .

١ – اعتبار التخصيص نسخاً (انظر مبحث العام والخاص) .

٢ – اعتبار البيان نسخاً (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتى) .

٣ – اعتبار ما شُرِعَ لسبب ثم زال السبب من المنسوخ ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار فى مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة ، قالوا إنه منسوخ بآيات القتال ، والحقيقة أن الأول – وهو وجوب الصبر والتحمل – كان ويكون لحالة الضعف والقلة . وإذا وُجِدَت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال ، وهو الحكم الثانى .

٤ – اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخاً : كتحديد عدد الزوجات بأربع ، ومشروعية القصاص والديّة ، وقد كان عند بنى إسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس ورواه البخارى (١) ، ومثل هذا ليس نسخاً ، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية .

* * *

أمثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطى فى الإتقان إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيل النسخ نذكر منها ما يأتى ونُعَلِّق عليه .

١ – قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (٢) منسوخة بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٣) وقد

(١) أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن الدية فيهم ، فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فالعفو أن تقبل الدية فى العمد ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ مما كُتِبَ على مَن كان قبلكم ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قيل بعد قبول الدية ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٨) .

(٢) البقرة : ١١٥ (٣) البقرة : ١٤٤

قيل - وهو الحق- إن الأولى غير منسوخة لأنها فى صلاة التطوع فى السفر على الراحلة وكذا فى حال الخوف والاضطرار ، وحكمها باق ، كما فى الصحيحين ، والثانية فى الصلوات الخمس ، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت فى السُنّة من استقبال بيت المقدس .

٢ - قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (١) قيل منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث » (٢) .

٣ - قوله : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ (٣) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (٤) لما فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كان مَن أراد أن يُفطر يفتدى ، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها .

وذهب ابن عباس إلى أنها مُحْكَمة غير منسوخة : روى البخارى عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ قال ابن عباس : « ليست بمنسوخة . هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيُطعمان كل يوم مسكيناً » - وليس معنى « يطيقونه » على هذا : يستطيعونه ، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة

وبعضهم جعل الكلام على تقدير « لا » النافية ، أى : وعلى الذين لا يطيقونه .

٤ - قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (٥) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ (٦) وقيل : يُحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحُرُم فلا نسخ .

---

(١) البقرة : ١٨٠.
(٢) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حسن صحيح .
(٣) البقرة : ١٨٤
(٤) البقرة : ١٨٥
(٥) البقرة : ٢١٧
(٦) التوبة : ٣٦

٥ - قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ (١) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ (٢) .

وقيل إن الآية الأولى مُحْكَمة لأنها فى مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج ، أما الثانية فهى لبيان العِدّة ، ولا تنافى بينهما .

٦ - قوله : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٣) نُسِخَتْ بقوله : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٤) .

٧ - قوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ (٥) نُسِخَتْ بآية المواريث وقيل - وهو الصواب - إنها غير منسوخة ، وحكمها باق على الندب .

٨ - قوله : ﴿ وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ (٦) . نُسِخَتا بآية الجلد للبِكْر فى سورة النور : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٧) وبالجلد للبِكْر وبالرجم للثَيِّب الوارد فى السُنّة : « ... البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مائة ونفى سنة ، والثَيِّبُ بالثَيِّبِ جَلْدُ مائة والرجم » (٨) .

---

(١) البقرة : ٢٤٠
(٢) البقرة : ٢٣٤
(٣) البقرة : ٢٨٤
(٤) البقرة : ٢٨٦
(٥) النساء : ٨
(٦) النساء : ١٥ - ١٦
(٧) النور : ٢
(٨) رواه مسلم من حديث عبادة بن الصامت .

٩ - قوله : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ (١) نُسخت بقوله : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ (٢) .

١٠ - قوله : ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ (٣) نُسخت بقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ (٤) ... الآية ، وبقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ (٥) .. الآية .

وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ . وقد مر ذكر أمثلة أخرى .

* * *

(١) الأنفال : ٦٥ (٢) الأنفال : ٦٦ (٣) التوبة : ٤١
(٤) التوبة : ٩١ (٥) التوبة : ١٢٢

١٥
المطلق والمقيد (١)

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً في فرد شائع لا يتقيد بصفة شرط ، ويرد تارة أخرى متناولاً له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربي ، وهو ما يُعرف في كتاب الله المعجز بـ « مطلق القرآن ومقيده » .

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحداً لا بعينه من الحقيقة ، وأكثر مواضعه النكرة في الإثبات كلفظ « رقبة » في مثل : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فإنه يتناول عتق إنسان مملوك - وهو شائع في جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء - وهو نكرة في الإثبات ، لأن المعنى : فعليه تحرير رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي » (رواه أحمد والأربعة) . وهو مطلق في جنس الأولياء سواء أكان رشيداً أو غير رشيد . ولهذا عرّفه بعض الأصوليين بأنه عبارة عن النكرة في سياق الإثبات ، فقولنا : « نكرة » احتراز عن أسماء المعارف وما مدلوله واحد معين ، وقولنا : « في سياق الإثبات » احتراز عن النكرة في سياق النفي فإنها تعم جميع ما هو من جنسها .

والمقيّد : هو ما دل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيّدة بالإيمان في قوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (٢) .

• أقسام المطلق والمقيّد وحكم كل منها :

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلي :

١ - أن يتحد السبب والحكم : كالصيام في كفارة اليمين : جاء مطلقاً في

(١) انظر « الإتقان » جـ ٢ ص ٣١ (٢) النساء : ٩٢